الباب الرابع
في الشعر

الفصل الأول
من الفتح الإسلامي
إلى سقوط الدولة الأموية

وجد الشعر العربي بمصر كما وجد في غيرها من الولايات الإسلامية؛ ولكن الذي وصلنا منه قدر يسير، لا يكفي لأن نعرف منه خصائص الشعر المصري، ولا أن نفرق بينه وبين الشعر في الأقطار الأخرى، قد نجد في هذه الأبيات القليلة التي وصلتنا بعض المعاني المصرية، وبعض الحوادث المصرية التي تفرق الشعر المصري عن الشعر في البلاد الأخرى ويعطيه الصبغة الإقليمية المصرية، ولكن هذه الأبيات أو المقطوعات لا تكفي لأن تدلنا على مدى تأثر الشعر العربي بالبيئة المصرية، وإن كانت تدلنا على أنه كان بمصر شعر تأثر بالحياة المصرية، ولكن هذا الشعر فقد، ولم يبق منه إلا مقطوعات قليلة متناثرة في كتب الأدب والتاريخ.

وأرجح أن أسباب ضياع الشعر المصري في هذا العصر هي نفس الأسباب التي جعلت الكتابة الفنية -أي كتابة الرسائل والإنشاء- تتأخر في مصر حتى قدوم أحمد بن طولون؛ ففي عصر الخلفاء الراشدين وعصر الأمويين والعباسيين كانت مصر ولاية ليس لها شأن مقر الخلافة، وإذا نبغ شاعر أو كاتب كان يحمل إلى الخليفة أو يرحل هو إلى دار الخلافة لينال من العطاء والهبات ما كان ياخذه شعراء الخليفة، أضف إلى ذلك عدم اكتراث

المصريين في أول الأمر بدراسة الأدب والعلوم الأدبية، بل كان جل اهتمامهم يكاد ينصرف إلى الدراسة الدينية الخالصة، مما أضعف رواية الشعر ودراسته في مصر، وسبب ضياع أكثر شعر المصريين.

وإذا أردنا درس تاريخ الشعر في مصر الإسلامية في العصر الذي نؤرخه في هذا الكتاب، فسنرى ثلاثة أدوار تطور فيها الشعر المصري تطورًا بينًا.

ففي الدور الأول الذي يبتدئ بالفتح إلى سقوط الدولة الأموية، لم يصلنا في هذا العصر الذي ينوف على مائة عام إلا عدة أبيات قليلة جدًّا، لا نستطيع أن نتحدث بها عن الشعر كله، ولم تصلنا قصيدة كاملة، إلا إذا استثنينا شعر الشعراء الوافدين على مصر، والذين كان لهم أثر كبير في ازدهار الحياة الأدبية في مصر، ومع ذلك فهذه الأبيات القليلة التي وصلتنا إنما تدلنا على أنه كان في مصر شعر، وأنه لم يعن أحد بروايته وحفظه ففُقد.

ولعل أول قصيدة رويت في مصر هي قصيدة أبي مصعب البلوي التي هجا بها أشراف مصر، وقد أعجب بها الخليفة معاوية بن أبي سفيان، فكان إذا قدم عليه أحد من أهل مصر سأله أن ينشده هذه القصيدة[1]؛ فالشاعر في هذه القصيدة يعيب عرب مصر أنهم حضرميون، ليس لهم شرف ولا مجد وأنهم متكبرون، ولست أدري سبب هذا الهجاء؛ لكن يخيل إليَّ أنه طلب نوالهم فرفضوا عطاءه.

وظللت أنادي اللكعاء قيسا ... ليدخلني وقد حضر الغذاء
وليس بماجد الجدات قيس ... ولكن حضرميات قماء

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم.

وأعـــرض نفحـــه اليربـــوع عنـــي ... يزيـــد بعـــد مـــا رفـــع اللـــواء
أشـــار بكفـــه اليمنـــى وكانـــت ... شـــمالًا لا يجـــوز لهـــا عطـــاء
أكلـــم عائـــذًا ويـــصد عنـــي ... ويمنعـــه الـــسلام الكبريـــاء
وجـــرف قـــد تهـــدم جانبـــاه ... كريـــب ذاكـــم الـــبرم العيـــاء
وأمـــا القحزمـــي فـــذاك بغـــل ... أضر بـــه مـــع الـــدبر الحفـــاء
وهـــذاك القـــصير مـــن تجيـــب ... ولـــو يـــسطيع مـــا نفـــض الخـــلاء[1]

يريد يزيد بن شرحبيل وقيس بن كليب الحاجب وعائذ بن ثعلبة البلوي الذي قتل بالبرلس سنة ٣٥، والقحزمي هو عمرو بن قحزم وكريب بن أبرهة، وأشار بالقصير إلى زياد بن حناطة التجيبي صاحب القصر المعروف باسمه.

ولهذا الشاعر قصيدة أخرى مدح بها عبد الرحمن بن قيسية بن كلثوم التجيبي الذي وهب أبوه داره ليكون مسجدًا بالفسطاط، وقد ضاعت هذه القصيدة ولم يبق منها سوى بيت واحد.

وأبـــوك ســـلم داره وأباحهـــا ... لجبـــاه قـــوم ركـــع وســـجود[2]

وهذا الشعر صدر من رجل لا نعرف إلا اسمه وهو قيس بن سلمة المكنى بأبي مصعب البلوي، ولا ندري أكان يقطن مصر كغيره من بطون «بلى» أم وفد عليها كباقي الشعراء الذين أكثروا من الوفود على مصر لمدح ولاتها.

ومن الأشعار التي وصلتنا أيضًا في تصدق عبد الرحمن بن قيسية على المسلمين بداره لبناء مسجد الفسطاط ما قاله أبو قبان بن نعيم بن بدر التجيبي:

---

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم: ص١٢٣.
(٢) خطط المقريزي: ج٤، ص٥.

وبـــابليون قـــد ســـعدنا بفتحهـــا وحزنـــا لعمـــر الله فيئًـــا ومغـــنما
وقيـــسية الخـــير بـــن كلثـــوم داره أبـــاح حماهـــا للـــصلاة وســـلما[١]

وفي ولاية مسلمة بن مخلد -سنة ثلاث وخمسين من الهجرة- هدم ما كان بناه عمرو بن العاص من مسجد الفسطاط وأمر بالزياة في المسجد الجامع وبناء منار المساجد كلها، فقال عابد بن هشام الأزدي:

لقـــد مـــدت لمـــسلمة الليـــالي عـــلى رغـــم العـــداة مـــع الأمـــان
وســـاعده الزمـــان بكـــل ســـعد وبلغـــه البعيـــد مـــن الأمـــاني
أمـــسلم فـــارتق لا زلـــت تعلـــو عـــلى الأيـــام مـــسلم والزمـــان
لقـــد أحكمـــت مـــسجدنا فأضـــحى كأحـــسن مـــا يكـــون مـــن المبـــاني
فتـــاه بـــه الـــبلاد وســـاكنوها كـــما تاهـــت بزينتهـــا الغـــواني
كـــأن تجـــاوب الأصـــوات فيهـــا إذا مـــا الليـــل ألقـــى بـــالحران
كـــصوت الرعـــد خالـــصه دوي وأرعـــب كـــل مختطـــف الجنـــان[٢]

وكان بين الولاة من يحب الشعر ويرويه، ومنهم من كان شاعرًا كالوالي عقبة بن عامر الذي كان شاعرًا؛ ولكن منعه شدة حرصه على دينه من أن يكثر من إنشاد الشعر[٣].

ولعل أكثر ولاة مصر في هذا الدور حبًّا للشعر والشعراء هو الأمير عبد العزيز بن مروان الذي ولي من سنة خمس وستين، إلى أن توفي بمصر سنة ست وثمانين هجرية، فقد اتصل به كثير من الشعراء النابهين ومدحوه هو وآل بيته،

(١) خطط المقريزي: ج٤، ص٥.
(٢) شرحه: ج٤، ص٧.
(٣) الولاة والقضاة للكندي: ص٣٧.

ولا غرو في ذلك فعبد العزيز كان إليه أمر الخلافة بعد أخيه عبد الملك، فكان الشعراء يقصدونه وهو على مصر حتى يكون لهم شأن بعد أن تصير إليه الخلافة، وكان عبد العزيز جوادًا يبذل العطاء لكل من يقصده فوفد عليه الشعراء، وهؤلاء الذين جاءوا مصر لم يقيموا بها إلا لأيام معدودة، ثم عادوا إلى موطنهم.

فممن جاء لمدح عبد العزيز بن مروان الشاعر أيمن بن خريم الأسدي أقام هذا الشاعر عند الوالي وأكثر من مدحه حتى قدم الشاعر نصيب بن رباح فأعجب الأمير بشعره، وبينما نصيب ينشد مدحه جاء الحاجب يقول: إن أيمن بن خريم بالباب، فأذن له عبد العزيز، فلما دخل قال له الأمير: يا أيمن، كم ترى ثمن هذا العبد؟ وأشار إلى نصيب، فنظر أيمن إليه وقال: «لنعم الغادي في إثر المخاض هذا أيها الأمير أرى ثمنه مائة دينار. قال: فإن له شعرًا وفصاحة. فسأل أيمن نصيبًا: أتقول الشعر؟ فأجابه نصيب نعم! فقال: قيمته ثلاثون دينارًا، فقال الأمير: يا أيمن أرفعه وتخفضه أنت! قال: لكونه أحمق أيها الأمير ما هذا وللشعر! أمثل هذا يقول الشعر أو يحسن شعرًا! فأمر عبد العزيز نصيبًا أن ينشده، فأنشده، فقال عبد العزيز: كيف تسمع يا أيمن؟ قال: شاعر أسود هو أشعر أهل جلدته. قال الأمير: «هو والله أشعر منك». وكرر ذلك، فغضب أيمن وقال: والله أيها الأمير إنك لملول ظرف. قال الأمير: كذبت والله ما أنا كذلك، ولو كنت كذلك ما صبرت عنك تنازعني التحية وتواكلني الطعام وتتكئ على وسادتي وفرشي وبك ما بك[1]. فاغتاظ أيمن

(١) يقصد بذلك أن أيمن بن خزيم كان به وضح.

واستأذن الأمير في الخروج إلى العراق، فأذن له وسار أيمن إلى بشر بن مروان والي العراق ومدحه بقوله:

ركبت المقطم في جمادى ... إلى بشر بن مروان البريدا
ولو أعطاك بشر ألف ألف ... رأى حقًّا عليه أن يزيدا
أمير المؤمنين أقم ببشر ... عمود الحق إن له عمودا
ودع بشرًا يقومهم ويحدث ... لأهل الزيغ إسلامًا جديدا
كأن التاج تاج بني هرقل ... جلوه لأعظم الأيام عيدا
على ديباج خدي وجه بشر ... إذ الألوان خالفت الخدودا[1]

فأنت ترى أن الشاعر هنا عرض بعبد العزيز في قوله: «إذ الألوان خالفت الخدودا» فإن عبد العزيز كان بوجهه نمش.

أمَّا نصيب بن رباح فيقول الرواة إنه كان لبعض العرب من بني كنانة، فاشتراه عبد العزيز بن مروان منهم، وقيل: بل باعه بعد أن مات أبوه إلى عبد العزيز، وقيل: إن نصيبًا رأى في نفسه مقدرة على الشعر، فحادث أمه أو أخته في الرحيل إلى عبد العزيز بمصر عساه يعتق أهل بيته، فضحكت هذه ساخرة منه، ولكنه أنشدها شعرًا أعجبت به، واطمأنت إلى قدومه مصر، فحضر باب عبد العزيز ولكنه لم يستطع الدخول، حتى رأى رجلًا حسن البزة، فحادثه نصيب في التوسط له بالدخول على الأمير، وعرفه أنه شاعر فاستنشده الرجل، فلما أنشده نصيب شيئًا من شعره استملحه الرجل، ولكنه شك أن يكون مثل هذا الشعر لمثل هذا الأسود، فطلب إليه أن ينشد شعرًا يذكر فيه جوف مصر وبعض فضائلها، ووعده أن يستمع إليه في الغد، فلما جاء الغد

(١) الأغاني: ج١، ص١٢٧.

أنشد نصيب الرجل:

سرى الهم تثنيني إليك طلائعه ... بمصر والجوف اعترتني روائعه
وبات وسادى ساعد قل لحمه ... عن العظم حتى كاد تبدو أشاجعه

إلى أن قال:

وكم دون ذاك العارض البارق الذي ... له اشتقت من وجه أسيل مدامعه
تمشي به أفناء بكر ومذحج ... وافناء عمرو وهو خصب مرابعه
إذا اكتحلت عينا محب بضوئه ... تجافت به حتى الصباح مضاجعه
وما زلت حتى قلت إني لخالع ... ولائي من مولى نمتني قوارعه
ومانح قوم أنت منهم مودتي ... ومتخذ ومولاك مولى فتابعه[1]

فأيقن الرجل صدق شاعرية نصيب، وقدمه إلى الوالي، فجرى له مع أيمن ما ذكرناه سابقًا. على أن هناك رواية أخرى تقول: إن نصيبًا كان يرعى إبلًا لمواليه، فأضل منها بعيرًا، فخرج يبحث عنه حتى أتى الفسطاط، وبه عبد العزيز، فرغب في الاتصال به، فاستأذن في الدخول فمنع، وبعد لأي طلبه الأمير واستنشده فأنشده:

لعبد العزيز على قومه ... وغيرهم نعم غامرة
فبابك ألين أبوابهم ... ودارك مأهولة عامرة
وكلبك آنس بالمعتفين ... من الأم بالابنة الزائرة
وكفك حين ترى السائل ... ين أندى من الليلة الماطرة
فمنك العطاء ومني الثناء ... بكل محبرة سائرة[2]

(١) الأغاني: ج١، ص١٢٧.
(٢) الأغاني: ج١، ص١٢٩.

فسر به الوالي وأعطاه واشترى ولاءه، ولكنهم مع هذا كله، فالمؤرخون يروون روايات كثيرة عن خروج نصيب إلى عبد العزيز، ومهما يكن من شيء فإن الشاعر اتصل بعبد العزيز حتى لقب بمولى عبد العزيز بن مروان؛ ولكنه لم يقم عند الأمير عبد العزيز بمصر، بل كان كثير التنقل متكسبًا بشعره كغيره من شعراء العرب، ولم يزل نصيب يتردد على مصر بين الفينة والفينة، ويمدح عبد العزيز حتى توفي الأمير متأثرًا بالطاعون، وكان قد هرب إلى قرية في الصعيد تسمى «سكر» خوفًا على نفسه من المرض ولكنه توفي بها[١]، فلما أتى نصيب نعي الأمير أنشد:

أصبت يوم الصعيد في سكر ... مصيبة ليس لي بها قبل[٢]
تالله أنسي مصيبتي أبدًا ... ما أسمعتني حنينها الإبل
لم يعلم النعش ما عليه من ... العرف ولا الحاملون ما حملوا
حتى أجنوه في ضريحهم ... حين انتهى من خليلك الأمل[٣]

وقد رثاه بقصيدة رائية أخرى منها:

عرفت وجربت الأمور فما أرى ... كماض تلاه الغابر المتأخر
ولكن أهل الفضل من أهل نعمتي ... يمرون أسلافًا أمامي وأغبر
فإن أبكه أعذر، وإن أغلب الأسى ... بصبر، فمثلي عند ما اشتد يصبر
وكانت ركابي كلما شئت تنتحي ... جماحًا فتقضي نحبها وهي تضمر
فقد عريت بعد ابن ليلى فإنما ... ذراها لمن لاقت من الناس منظر

---

(١) هكذا في الأغاني: ج١، ص١٣٩، ولكن الكندي يقول: إنه توفي بحلوان.

(٢) يروى هذا االبيت في كتاب الولاة للكندي ص٦٦ منسوبًا إلى كثير في رثاء عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان وأبي بكر بن عبد العزيز بن مروان.

(٣) الأغاني: ج١، ص١٣٩.

ولـو كـان حيًّـا لم يـزل بـدفوفها ... مـرادًا لغربـان الطريـق ومنقـر
فـإن يكـن قـد نلـن ابـن لـيلى فإنـه ... هـو المـصطفى مـن أهلـه المتخـير

وقد أعجب بهذه القصيدة الخليفة عبد الملك بن مروان، وكان يطلب من نصيب أن ينشدها أمامه(١).

ووفد الشاعر عبد الله بن الحجاج(٢) على عبد العزيز بن مروان بمصر ومدحه، فأجزل عطاه، وأمره أن يقيم عنده، ولكن طال مقامه واشتاق إلى ذويه بالكوفة، فاستأذن الأمير في السفر فلم يأذن له، فاضطر الشاعر إلى أن يعصي أمر الأمير، فقد غلبه الشوق، فرحل بدون إذن، فاضطر الأمير عبد العزيز إلى أن يكتب إلى أخيه بشر والي العراق أن يمنع عطاء بن الحجاج، واضطر الشاعر إلى أن يعود إلى مصر مادحًا عبد العزيز معتذرًا، فصفح عبد العزيز عنه بعد أن استمع لقصائده التي منها:

تركـت ابـن لـيلى ضـلة وجريمـة ... وعـن ابـن ليلى(٣) معقـل ومعـول
سـأحكم أمـري إذ بـدا لي رشـده ... وأختـار أهـل الخـير إن كنـت أعقـل
وأتـرك أوطـاري وألحـق بـامرئ ... تحلـب كفـاه النـدى حـين يـسأل(٤)

ثم أمر عبد العزيز أن يطلق عطاء الشاعر وأن يوصل، وسمح له أن يقيم أنَّى شاء.

---

(١) الأغاني: ج١، ص١٣٩.
(٢) الأغاني: ج١٢، ص٢٩.
(٣) كان الأمير عبد العزيز يغتبط إذا ذكر أحد الشعراء اسم والدته (ليلى) في شعره حتى روى أنه قال: «لا أعطي شاعرًا شيئًا حتى يذكرها في مدحي لشرفها» (الأغاني: ج١، ص١٣١) وكانت من بني كلب.
(٤) الأغاني: ج١٢، ص٣٠.

وجاء مصر الشاعر كثير عزة وتردد عليها مرارًا يمدح الأمير عبد العزيز بن مروان، ويقال: إنه دخل على عبد العزيز يعوده في مرضه وأهله يتمنون أن يضحك، فلما وقف عليه قال: «لو أن سرورك لا يتم إلا بأن تسلم وأسقم، لدعوت ربي أن يصرف ما بك إلي؛ ولكني أسأل الله تعالى لك العافية ولي في كنفك النعمة». فضحك عبد العزيز وسر أهله[١]. وبينما كثير يتاهب للرحيل من مصر لقيته عزة في طريقها هي وقومها إلى مصر، قيل: فحادثها طويلًا ثم افترقا، فقدمت هي مصر وسافر هو إلى الحجاز على أن يلحق بها بمصر. ويحدثنا الحصري قال: وروى المداني: خرج كثير من الحجاز يريد مصر، فلما قرب منها نزل بمنزل فإذا هو بغراب على شجرة بان ينتف ريشه وينعب، فأسرع الرحيل ومضى لوجهه، فلقيه رجل من بني نهد، فقال: يا أخا الحجاز، ما لي أراك كاسف اللون؟ قال: ما علمت إلا خيرًا. قال: فهل رأيت في طريقك شيئًا أنكرته؟ قال: لا والله إلا في منزلي هذا، فإني رأيت غرابًا ينتف ريشه على بانة ينعب. قال: أما إنك تطلب حاجة لا تدركها. فقدم كثير مصر والناس منصرفون من جنازة عزة فقال:

رأيت غرابًا ساقطًا فوق بانة ... ينتف أعلى ريشه ويطايره
فقلت ولو أني أشاء زجرته ... بنفسي للنهدى هل أنت زاجره
فقال غراب لا غراب من النوى ... وفي البان بين من حبيب تجاوره
فما أعيف النهدي لا در دره ... وأزجره للطير لا عز ناصره[٢]

ثم أتى قبر عزة فأناخ به ساعة، ثم رحل وهو يقول:

---

(١) ابن خلكان: ج١، ص٤٣٣.

(٢) زهر الآداب: ج٢، ص١٦٩.

أقول ونضوي واقف عند رأسها ... عليك سلام الله والعين تسفح
فهذا فراق الحق لا أن تزيرني ... بلادك فتلاء الذراعين صيدح
وقد كنت أبكي من فراقك حية ... وأنت لعمري اليوم أنأى وأنزح[1]

وهكذا شاء القدر أن تدفن عزة بمصر، وأن يبكيها كثير بها، والرواة يقولون: إن شعره تغير بعد موتها، وسأله أحدهم: ما بال شعرك قد قصرت فيه؟ فقال: ماتت عزة فلا أطرب، وذهب الشباب فلا أعجب، ومات عبد العزيز بن مروان فلا أرغب؛ وإنما الشعر عن هذه الخلال[2].

وقدم جميل بن معمر إلى عبد العزيز مادحًا، فأذن له وسمع قصائده وأحسن جائزته، وسأله عن حبه لبثينة فذكر ولعه بها، وأمره الوالي أن يقيم معه في مصر وهيأ له منزلًا وأجرى عليه رزقًا، فما أقام إلا قليلًا حتى وافته منيته بمصر سنة اثنين وثمانين من الهجرة، ويقال: إنه أنشد وهو يحتضر:

بكر النعي وما كان بجيمل ... مثوى بمصر ثواء غير قفول
قومي بثينة فاندبي بعويل ... وابكي خليلك قبل كل خليل[3]

وكذلك وفد عبيد الله بن قيس الرقيات على مصر ومدح عبد العزيز، وشاد بذكر مدينة حلوان التي بناها الأمير واتخذاها مسكنًا له.

سقيًا لحلوان ذي الكروم وما ... صنف من تينه ومن عنبه
نخل مواقير بالفناء من البـ ... ـرني غلب تهتز في شربه

(١) حسن المحاضرة للسيوطي: ج١، ص٣٢٢.
(٢) حسن المحاضرة للسيوطي: ج١، ص٣٢٢.
(٣) شرحه.

أســـود ســـكانه الحـــمام فـــما تنفـــك غربانـــه عـــلى رطبـــه[١]

ومدح عبد العزيز بأشعار كثيرة جدًّا نجدها في ديوانه، من ذلك ما قاله لما خرج عبد العزيز خرجته الثالثة إلى الإسكندرية سنة إحدى وثمانين من الهجرة.

غـــدوا مـــن مَـــدْرج الكريـــو ن حيـــث ســـفينهم حـــزق
فلـــما أن علـــون النيـــ ـــل والرايـــات تختفـــق
رأيـــت الجـــوهر الحكـــ ـــمي والـــديباج يـــأتلق
ســـفائن غـــير مُقـــ ـــرفة إلى حلـــون تـــستبق
محـــل مـــن يحـــل بـــه لذيـــد عيـــشه غـــدق
يحـــل بـــه ابـــن لـــيلى والنـــ ـــدى والحلـــم والـــصدق[٢]

ونلاحظ أن الفرزذق لم يكن يحب الوفود على الأمراء؛ ولكنه كان يود أن يفد على مصر، وعمل شعرًا في مدح عبد العزيز بن مروان، وهم الفرزدق أن يزور مصر ولكن جاءه نعي عبد العزيز فبقي مكانه ولم يأت مصر.

وقد رثى الأمير كثير من الشعراء؛ من ذلك ما قاله ذو الشامة محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط يرثي عبد العزيز وابنه الأصبغ الذي توفي سنة ست وثمانين من الهجرة قبل وفاة أبيه بنحو شهرين:

نقـــول غـــداة قطعنـــا الجفـــا ر والعـــين بالـــدمع مغرورقـــة
مقـــال امـــرئ كـــاره للفـــرا ق تـــاع الـــبلاد وبـــاع الرقـــه
أبعـــد الخليفـــة عبـــد العزيـــز وبعـــد الأمـــير كـــذا وابقـــه

(١) خطط المقريزي: ج١، ص٢٠٩، وديوان قيس الرقيات والكندي: ص٥٠.
(٢) ديوان ابن قيس الرقيات: ص٣٣٩.

فما مصر لي بعد عبد العزيـ ـز والأصبغ الخير بالمونقه
سقى الله قبريها والصدى وما جاورا ديمة مغدقه
فإن تك مصر أشارت بها إلى الشر يومًا يد موبقه
فقدما تقر بمصر العيون في لذة العيش محدودقة[1]

فأنت ترى كيف استطاع الأمير عبد العزيز بن مروان أن يجمع حوله عددًا من الشعراء البارزين، وأن يجعلهم يتجشمون صعاب الطريق من بلادهم إلى مصر.

وكذلك نقول عن الوالي عبد الملك بن مروان الذي ولي مصر سنة ست وثمانين، فقد وفد عليه الحزين الكناني، ويكنى سليمان أبا الشعثاء ومدح الوالي بقوله:

الله يعلم أن قد جبت ذا يمن ثم العراقين لا يثنيني السأم
ثم الجزيرة أعلاها وأسفلها كذلك تسري على الأهوال بي القدم
ثم المواسم قد أوطأتها زمنًا وحيث تحلق عند الجمرة اللمم
قالوا دمشق ينبيك الخبير بها ثم ائت مصر فثم النائل العمم
لما وقفت عليها في الجموع ضحى وقد تعرضت الحجاب والخدم
حييته بسلام غير مرتفق وضجة القوم عند الباب تزدحم
في كفه خيزران ريحها عبق من كف أروع في عرنينه شمم[2]

لم تعدم القبائل العربية التي قطنت مصر أن يظهر بينهم شعراء وقد هيئت الأسباب التي تدعو إلى وجود الشعراء. تلك هي الفتن التي كانت في مصر إذ

(١) الكندي: ص٥٦.

(٢) الأغاني: ج١٤، ص٧٦، وقيل: إن هذه القصيدة للحزين في رثاء عبد العزيز بن مروان، ومهما يكن من أمر هذا الاختلاف فقد قيلت هذه القصيدة في مصر وكان الحزين بها.

ذاك، كما كان الحال في جميع البلاد الإسلامية. من ذلك أن عبد الرحمن بن جحدم ولي مصر من قبل ابن الزبير، فلما أن بويع مروان بن الحكم سنة أربع وستين من الهجرة أراد أن ينتزع مصر من الزبيريين فسير ابنه عبد العزيز إليها فحفر ابن جحدم خندقًا حول الفسطاط سنة خمس وستين من الهجرة، وأرسل جيشًا عليه زهير بن قيس البلوي إلى أيله ليمنع عبد العزيز من المسير، وسار مروان أيضًا إلى مصر ولكن هزم الجيش المصري وتقدمت جيوش المروانيين[١]، ففي هذه الحروب قال بعض عرب مصر شعرًا، ولكن هذا الشعر لم يصلنا منه إلا النزر اليسير؛ من ذلك ما قاله زرعة بن سعد بن أبي زمزمة الحشني يمدح ابن جحدم:

وما الجد إلا مثل جد ابن جحدم ... وما العزم إلا عزمه يوم خندق
ثلاثون ألفًا هم أثاروا ترابه ... وخدوه في شهر حديث مصدق[٢]

وما زال هذا الشاعر ينقم على الأمويين، حتى كانت ولاية عبد الله بن عبد الملك بن مروان، وشاءت الظروف أن ترتفع الأسعار بمصر فتشاءم المصريون بالوالي الجديد، وخرج الوالي سنة ثمان وثمانين إلى أخيه الوليد، فهجاه ابن أبي زمزمة بقوله:

إذا صار عبد الله من مصر خارجًا ... فلا رجعت تلك البغال الخوارج
أتى مصر والمكيال واف مغربل ... فما سار حتى سار والمد فالج[٣]

فغضب عليه الوالي وأهدر دمه، فاضطر الشاعر أمام هذا الوعيد إلى أن

---

(١) الكندي: ص: ٤١، ٤٢.
(٢) الكندي: ص: ٤١، ٤٢.
(٣) شرحه: ص٥٩.

يهرب من مصر إلى بلاد المغرب حيث كتب إلى الخليفة:

ألا لا تنــــه عبـــــد الله عنـــــي كــما قــد قــال يجعلنــي نكــالا
ولم أشــــتم لعبـــــد الله عرضًــــا ولم آكـــل لعبـــد الله مــــالا[١]

وقيل: إن عبد الله طلب الشاعر ابن أبي زمزمة، فهرب منه فبلغ الوالي أن عمران بن عبد الرحمن قاضي مصر أوى الشاعر، وأن القاضي هجا الوالي بأبيات له منها:

أنــا ابــن أبي بــدر بهجـرة يثــرب وهجــرة أرض للنجــاشي أفخــر
أمــثلي عــلى ســني وفــضل أبــوتي نـسيت وهـذا نجل مـروان يـذكر[٢]

فعزله عبد الله عن القضاء والشرطة سنة تسع وثمانين، فقال عمران يهجو عبد الله ويعرض بالقاضي الجديد عبد الواحد بن عبد الرحمن بن معاوية – وكان حدثًا غير أنه كان فقيهًا–:

لحـى الله قومًـا أمـروك ألـم يـروا بأعطافـك التخنيـث كيـف يريـب
أتـصرفني جهـلًا عـن الحكـم ظالمًـا ووليتـــه عجـــزًا فتـــاة تجيـــب[٣]
ثكلتــك مــن وال وأيــضًا ثكلتــه ألـم يك في الناس الكثير نـصيب[٤]

واستمرت الحروب التي كانت بين الزبيريين والأمويين في مصر طويلًا، وكانت تعرف هذه الحروب بأيام الخندق أو «التراويح»[٥]؛ لأن أهل مصر

(١) شرحه.
(٢) الكندي: ص٣٢٨.
(٣) أراد بفتاة تجيب القاضي عبد الواحد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج التجيبي.
(٤) الكندي: ص٣٢٨.
(٥) الكندي: ص٤٤.

كانوا يقاتلون نوبًا، يخرج هؤلاء ثم يرجعون ويخرج غيرهم، وقتل من المصريين عدد كثير لا سيما من «المعافر»، وفي هذه الحروب قال عبد الرحمن بن الحكم وكان مروانيًّا:

ألا هل أتاها على نأيها ... نباء التراويح والخندق
بلغنا بفيلق يغشى الظراب ... بعيد السمو لمن يرتقي
وسدت معافر أفق البلاد ... بمرعد جيش لها مبرق
ونادى الكماة ألا فابرزوا ... فحتام حتى ولا نلتقي[1]

وقام بعض المصريين بالصلح بين المروانيين والمصريين؛ ولكن المعافر لم يقبلوا أن يبايعوه، فقتل من المعافر نحو ثمانين رجلًا بينهم الأكدر بن حمام سيد لخم وشيخها، فلما علم المصريون ذلك، لم يبق أحد حتى لبس سلاحه، واجتمع على باب مروان أكثر من ثلاثين ألفًا، فخاف مروان وأغلق بابه، وكاد المصريون يفتكون به لو لم يجره كريب بن أبرهة. وفي رثاء الأكدر قال زياد بن قائد اللخمي:

كما لقيت لخم ما ساءها ... بأكدر، لا يبعدن أكدر
هو السيف جرد من غمده ... فلاقى المنايا وما يشعر
فلهفي عليك غداة الردى ... وقد ضاق وردك والمصدر
وأنت الأسير بلا منعة ... وما كان مثلك يستأثر[2]

ونرى شاعرًا آخر لا نعرف اسمه يخاطب الخليفة الوليد بن عبد الملك لما عزل أخاه عبد الله بن عبد الملك عن مصر وولى عليها قرة بن شريك سنة ٩٠هـ.

---

(١) شرحه.

(٢) الكندي: ص٤٦.

عجبًا ما عجبت حين أتانا ... أن قد أمرت قرة بن شريك
وعزلت الفتى المبارك عنا ... ثم فيلت فيه رأى أبيك[١]

كذلك لم يصلنا شعر الشاعر المسور الخولاني وقد كان في أواخر أيام الأمويين ووصلنا من شعره بيتان من قصيدة يخاطب ابن عم له يحذره من الخليفة مروان بن محمد الذي قتل بعض أشراف مصر؛ لأنهم خلعوه وأرادوا غيره.

فإياك لا تجني من الشر غلظة ... فتودى كحفص أو رجا بن الأشيم[٢]
فلا خير في الدنيا ولا عيش بعدهم ... فكيف وقد أضحوا بسفح المقطم

وقال الشاعر مرسل بن حمير يبكي حفصًا وأصحابه:

يا عين لا تبقي من العبرات ... جودي على الأحياء والأموات
يا حفص يا كهف العشيرة كلها ... يأخا النوال وساتر العورات
إما قتلت فأنت كنت عميدهم ... والكهف للأيتام والجارات
أودى رجاء لا كمثل رجائنا ... رجل، وعقبة فارج الكربات
وشبابنا عمرو، وفهد ذو الندى ... وابن السليط وعامر الغارات
قتلوا ولم أسمع بمثل مصابهم ... سروات أقوام بنو سروات
ظلت دماؤهم فلم يعرج لهم ... بين ولم يطلب لهم بجناة[٣]

ولما قدم مروان بن محمد مصر في شوال سنة اثنتين وثلاثين ومائة من

---

(١) الكندي: ص٩٣.

(٢) هكذا في الكندي: ص٩١؛ ولكن عجز هذا البيت مكسور، ولعل الصحيح: «أو رجاء بن أشيم»، وحفص المذكور هو حفص بن الوليد الذي ولي علي مصر مرارًا، وكان رجاء عامله على الصعيد قتلهما حوثرة الباهلي سنة ١٢٨هـ.

(٣) الكندي: ص ٩١، ٩٢.

الهجرة وجد أكثر أهل مصر قد سودوا، فعزم على تعدية النيل، فأمر بالدار المذهبة أن تحرق، وكانت تسمى بالدار البيضاء، وهي التي بناها مروان بن الحكم حين دخل مصر سنة خمس وستين هجرية، فبكى شعراء مصر هذه الدار؛ فمن ذلك ما قاله عيسى بن شافع:

يا طللا أقوى وحل البلى ... منه لدى العلو وفي السفل
قد كنت مغني لعيون المها ... وكنت مأوى لظبي الرمل
وكان أربابك ما إن لهم ... في الناس من نوع ولا شكل[١]

وكان لبعض الولاة ولع باللهو والمجون وشرب الخمر، كالوالي قرة بن شريك الذي الجامع العتيق بالفسطاط وأعاد بناءه، فكان الصناع إذا انصرفوا من البناء دعا قرة بالخمور والزمور والطبول، فيشرب الخمر في المسجد طول الليل، وهو يقول: «لنا الليل ولهم النهار»[٢]. وعن هذا الوالي قال السيوطي: «كان قرة ظلومًا عسوفًا؛ قيل: كان يدعو بالخمر والملاهي في جامع عمرو»[٣]. ولقد أغضب هذا الوالي جماعة العرب بمصر، فقال أحدهم فيه الشعر الذي ذكرناه[٤]، ويحدثنا صاحب الأغاني أن الأبحر المغنى كان متصلًا بالخليفة الوليد بن يزيد، فلما قتل الوليد خرج الأبجر إلى مصر وما زال بها حتى مات[٥]، ولكنا لا نعلم أنه كان في خدمة أحد ولاة مصر، وربما اضطره فنه إلى أن يطرب المصريين ويشجيهم.

---

(١) الكندي: ص٩٥.
(٢) النجوم الزاهرة: ج١، ص٢١٨.
(٣) حسن المحاضرة: ج٢، ص٧.
(٤) ص ١٣٢.
(٥) الأغاني: ج٣، ص١١٢.

وقد فُقد كل الشعر الغزلي وكل ما أنشد في وصف حياة اللهو والمجون في مصر، كما فُقد غيره من الشعر في هذا العصر.

الفصل الثاني
من قيام العباسيين
إلى دخول ابن طولون

دخلت مصر في طور جديد بعد أن جاءها صالح بن علي سنة اثنتين وثلاثين ومائة من الهجرة، وقتل بها مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، وابتنى صالح بمصر دارًا للإمارة، ومدينة لعسكره، صار ينزلها كل الأمراء من قبل العباسيين. ولكنا نلاحظ أن ولاة هذا العصر لم يمكثوا طويلًا في مناصبهم، بل كانوا يعزلون بعد عام، أو بعد بعض عام، ويستبدل بهم غيرهم، وحدث أن ولي مصر ثلاثة ولاة في سنة تسع عشرة ومائتين من الهجرة، وبلغ عدد الولاة الذين تولوا مصر في خلافة هارون الرشيد وحده نحوًا من اثنين وعشرين واليًا، فقد جرى خلفاء العباسيين على سُنة تغيير الولاة؛ لخوف العباسيين من أن يطمح الولاة في الاستقلال بالبلاد، لذلك لم يتمكن الولاة من إصلاح البلاد الداخلية، وكثرت الفتن والاضطرابات، فكانت مصر طوال هذا العصر مرجلًا يغلي بالثورات والفتن؛ ففتن قام بها المصريون، وثورات دبرها العرب، وخاصة قبائل قيس الذين نزحوا في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، وثورات أخرى قام بها العلويون يطالبون بالخلافة، كما عمل بعض الولاة للاستئثار بمصر، كل هذه الحركات كانت سببًا في إيقاظ روح الشعر بمصر، وداعية لإثارة الحمية العربية؛ بل العصبية القبلية، فجرى الشعر على ألسن الشعراء متحدثين بما كان في البلاد من حوادث.

كذلك تطورت العلوم بمصر كما رأينا، فبعد أن كانت دينية فقط أصبحت

في هذا الدور دينية أدبية، ورحل كثير من المصريين إلى العراق والحجاز في طلب العلم، كما وفد كثير من علماء العراق والحجاز إلى مصر، وصار علماء الدين يحفظون الشعر واللغة والأخبار، فالليث بن سعد مثلًا كان عربي اللسان، يحسن القرآن والنحو، ويحفظ الحديث والشعر[١]، والمحدث ابن الوزير التيجبي كان محدثًا فقيهًا من جلساء عبد الله بن وهب، وكان عالمًا بالشعر والأدب وأخبار الناس[٢]، وعبد الحميد بن الوليد المصري المعروف بكيد والمتوفى سنة ٢٢١هـ؛ كان فقيهًا عالمًا بالأخبار والنحو[٣]، والشاعر سعيد بن عفير المصري أخذ العلوم الدينية عن مالك وغيره وتلقى العلوم اللغوية والأدبية عمن كان بمصر من العلماء كما كان حجة وثقة في علوم الحديث[٤]، والشاعر المصري الحسين عبد السلام المعروف بالجمل الأكبر عرف عنه شدة اتصاله بالإمام الشافعي وكان أحد رواته[٥]. فكما كانت الحياة العقلية تتطور في العراق في هذا العصر تطورًا كبيرًا، وانتشرت العلوم العربية والثقافات الأجنبية في العراق، وأنشأ المأمون بيت الحكمة ليكون مركز الحركة العلمية وتأثر شعراء العراق والعلماء بهذه الألوان المختلفة من الثقافة، نجد مصر تتطور أيضًا ولكنها تأخذ بحظ قليل من الثقافات الأجنبية، وبقسط عظيم من الثقافة العربية، وكان لهذا أثره في الشعر.

---

(١) حسن المحاضرة: ج١، ص١٢٠.

(٢) حسن المحاضرة: ج١، ص١٥٩.

(٣) حسن المحاضرة: ج١، ص٢٢٤.

(٤) حسن المحاضرة: في مواضع متفرقة.

(٥) النجوم الزاهرة: ج٣، ص٣٠.

وبينما نجد الحياة في العراق أدت إلى تطور الشعر في العصر العباسي ونجد في الشعر مدرستين متمايزتين إحداهما تعنى بالألفاظ المنمقة، وتسرف في الزينة البديعية، حتى تطرب الأذن ويلذ العقل من نغمات موسيقى الشعر وموسيقى اللفظ، وأسرف بعض شعراء هذه المدرسة حتى أنه لا يكاد يخلو بيت من شعرهم من غير جناس أو مطابقة أو تمثيل، إلى غير ذلك من أنواع البديع، فأجهدوا أنفسهم في التوفيق بين زينة اللفظ وزينة المعنى، فوقفوا حينًا، وأخفقوا حينًا آخر حتى ذهب بعض النقاد إلى أن أبا تمام ومسلم بن الوليد ومن ذهب مذهبهما أفسدوا الشعر لكثرة البديع في أشعارهم، أما المدرسة الأخرى فقد جددت أيضًا في الشعر، ولكنه تجديد يخالف تجديد الآخرين؛ إذ رأى أصحاب هذه المدرسة أن الغرض من الشعر ليس في موسيقى اللفظ بل بما يؤديه الشعر من المعاني، فاستعاضوا عن الألفاظ الضخمة التي نراها في شعر الجاهليين وشعر صدر الإسلام والأمويين، بألفاظ سهلة رشيقة تلائم الحياة الناعمة المترفة التي حياها الناس في عصر العباسيين، حتى ألف الناس النعومة واللين في كل شيء، فتبع هؤلاء الشعراء تطور الحياة، وجددوا في شعرهم تجديدًا يلائم حياة عصرهم، وأنشدوا شعرًا استطاع أن يألفه الناس، ويفهمه العامة؛ بل نرى بعض أصحاب هذه المدرسة قد تهكم بالقدماء وبأسلوبهم وشعرهم.

أمَّا في مصر فكان الغالب عليهم العناية بالمعاني، وقلَّ أن نجد في شعرهم أنواع البديع التي نراها في شعر تلاميذ مسلم وأبي تمام، ولم يبدع خيالهم من التشبيهات ما زينوا به أقوالهم، فجاء شعرهم طبيعيًّا لا تكلف فيه، فلم يتعمد الشعراء أن يتكلفوا الشعر.

ولعل تطور الحياة في مصر، واختلافها عن الحياة البدوية، كان له أثر واضح في ألفاظ الشعراء المصريين؛ فهي ليست بألفاظ شعبية كألفاظ أبي نواس والرقاشي ومن ذهب مذهبهما، وليست جافة ضخمة كالتي نراها في شعر الجاهليين، بل هي ألفاظ بين الضخامة واللين، والمعاني التي نراها في الأشعار المصرية التي وصلتنا هي معاني مصرية تتحدث في حوادث مصر، وتظهر فيها بعض الخصائص المصرية التي لا نجدها في شعر سوى الشعر المصري؛ بل لا تصدر إلا عن شاعر مصري أو أقام في مصر وتأثر بها، ولا أجد في الشعر المصري في هذا العصر ذكر الدمن والأطلال التي ملئ بها الشعر العربي، ولا نجد في الشعر المصري تقسيم القصيدة الواحدة إلى غزل أو خمريات، ثم وصف الدمن فالصحراء فالإبل إلى غير ذلك مما نراه في قصائد العرب. فالذي ألاحظه أن المصريين قصدوا إلى غرضهم دون تمهيد له، وقد يكون هذا الرأي غير صحيح؛ لأن الشعر المصري فُقد، ولم يبق منه إلا صور قليلة جدًّا لا تكفي لأن نستدل بها على حياة الشعر في هذا العصر، ولكن حكمي هو على ما وجدته، وهو حكم لا أتشبث به، فربما نعثر على بعض الأشعار التي نهدم بها هذا الرأي.

ومهما يكن من شيء؛ فإن الشعر الذي وصلنا في هذا العصر يعطينا صورة لما كانت عليه الحالة في مصر السياسية والاجتماعية والأدبية، ثم تدلنا على أن الشعر المصري ابتدأ ينمو ويقوى ويتأثر بالبيئة المصرية الخالصة، ويعبر عما كان بمصر من اتجاهات وخواطر مختلفة، وألوان الثقافات المتعددة، وضروب الحركات السياسية وغير السياسية، وليس أدل على ذلك من هذه الأشعار التي قيلت في الاضطرابات العديدة التي كانت في مصر في ذلك العصر.

أثر الفتن في الشعر:

نستطيع أن نقسم الفتن التي كانت بمصر في هذا العصر إلى:

١ - **ثورات سياسية** -إن صح هذا التعبير- كان يقوم بها قبائل العرب ضد الولاة والأمراء لجور أحكامهم، وسوء سياستهم؛ من ذلك ما كان في ولاية موسى بن مصعب الخثعمي الذي ولي في أواخر سنة سبع وستين ومائة من الهجرة، فقد تشدد الوالي في جمع الخراج، وزاد على كل فدان ضعف ما كان أولًا، وجعل خراجًا على أهل الأسواق وعلى الدواب. وعاد إلى الرشوة في الأحكام، فأظهر الجند كراهته، ولم يستطع عماله أن يدخلوا الحوف، وتحالف القيسية واليمنية على قتاله، واتفق أهل الحوف أيضًا مع جند الفسطاط على الثورة ضد هذا الوالي، فخرج موسى مع جنده لقتال الثائرين، فانهزم جند الفسطاط عنه وقتل الوالي سنة ثمان وستين ومائة من الهجرة بعد عشرة أشهر من ولايته، هذا الحادث كان له أثر في الشعر؛ إذ أنشد الشعراء في ذلك مترنمين بانتصار أهل الحوف من ذلك ما قاله سعيد بن عفير:

ألم ترهم ألوت بموسى سيوفهم ... وكانت سيوفًا لا تدين لمترف
فما برحت به تعود وتبتدي ... إلى أن تروى من حمام مدنف
فأصبح من مصر وما كان قد حوى ... بمصر من الدنيا سليبًا بنفنف
ولكن أهل الحوف لله فيهم ... ذخائر إذ لا ينفد الدهر تعرف[1]

وفي ولاية الحسين بن جميل امتنع أهل الحوف من أداء الخراج سنة إحدى وتسعين ومائة من الهجرة، وخرج أبو الندى مولى «بلى» في نحو ألف رجل

(١) الولاة للكندي: ص١٢٧.

يقطع الطريق وأغار على بعض قرى الشام، وساعده في ذلك رجل من جذام يقال له المنذر بن عابس وآخر يدعى سلام النوى، فكثر فسادهم، وأوقعوا الرعب في نفوس المصريين جميعًا، فبعث هارون الرشيد بقائده يحيى بن معاذ لقمع هذا الحركة ولإخضاع أهل الحوف، فتم ليحيى ذلك وقدم الفسطاط ومعه أبو الندى وابن عابس فمدح الشعراء القائد يحيى؛ فمن ذلك ما قاله أبو عثمان السكري:

يا قيس عيلان إني ناصح لكم ... أدوا الخراج وخافوا القتل والحربا
إني أحذركم يحيى وصولته ... فما رأيت له تقيا إذا غضبا

وقال أيضًا:

قد جبينا قيسًا ولم تك تجتبى ... فقتلنا أبا الندى وابن عابس
وتركنا لخمًا وحي جذام ... لا يطيقون رفع كف تلامس
آمن الله بالمبارك يحيى ... حوف مصر إلى دمشق فبالس
وأباد الخلاع من كل أرض ... بعد ما حاد عنهم كل فارس[1]

وقد يطول بنا الحديث عن هذه الثورات الكثيرة التي كان يقوم بها عرب مصر ضد الولاة والحكام؛ ولكن أرى أن ألم بثورة الجروي ولاة مصر والخلافة العباسية مدة طويلة[2]، فقد كان عبد العزيز ابن الوزير الجروي صاحب الشرطة بمصر في ولاية المطلب الخزاعي سنة ثمان وتسعين ومائة من الهجرة وعزل بعد قليل، وبعث على رأس الجيش لمحاربة أهل الحوف، ثم أعيد إلى الشرطة سنة تسع وتسعين ومائة في ولاية العباس بن موسى، ولكن

(١) الكندي: ص١٤٥.

(٢) نجد ثورة الجروي في الكندي ص ١٥٥ وما بعدها.

الجند ثاروا، وأجمعوا على تولية المطلب الخزاعي مدة أخرى، فاضطر الجروي إلى الهرب إلى تنيس، فلما تمَّ الأمر للمطلب وأطاعه وجوه أهل الحوف، أرسل إلى الجروي بعقده على تنيس، وأمره بالحضور إلى الفسطاط، فامتنع الجروي فبعث المطلب بوال آخر على تنيس، فلم يستطع دخولها، وسار الجروي لمحاربة السري بن الحكم الذي أرسله الوالي لحرب الجروي، فاسر السري وسجن، وتوالت جيوش الوالي لحرب الجروي فكانت تهزم الواحدة تلو الأخرى، وجد الوالي في أمر الجروي فأخرج الجروي السري بن الحكم من السجن بعد أن تعاهدا على أن يخلعا الوالي ويخلفه السري، وبعد حروب طويلة، أرسل الوالي في طلب الأمان من السري على أن يسلم إليه الأمر، ويخرج من مصر، وقد تمَّ ذلك وخرج المطلب الخزاعي إلى مكة، وفي هذا أشار دعبل الخزاعي بقوله:

فكيف رأيت سيوف الجريش ... ووقعة مولى بني ضبة[1]
أحجتك أسيافهم كارهًا ... ومالك في الحج من رغبة

وتمَّ أمر مصر إلى السري في رمضان سنة مائتين من الهجرة، فطلب الوالي إلى الجروي أن يذهب لتأديب لخم بالإسكندرية، وكاد الجروي يفتح حصنها، فخشي السري أن يملكها الجروي، فأوعز إلى أحد رجاله أن يخالف الجروي، فاضطر الجروي إلى أن يرجع إلى تنيس سنة إحدى ومائتين وفسد ما بينه وبين السري، وفي ذلك قال سعيد بن عفير:

ألا من مبلغ الجروي عني ... مغلغلة يعاتب أو يلوم

(١) مولى بني ضبة هو السري بن الحكم.

أقمت تنازل الأبطال حتى ... تميز ذو الحفيظة والسئوم
وصلت بهم فما وهنت قواهم ... وطير الموت دائرة تحوم
ولو هجمت جموعك حين حلوا ... عليهم باد جمعهم المقيم
وكيف رأيت دائرة التواني ... أتتك بصحو نحس لا يقيم
أتاك وقد أمنت ونمت كيدًا ... لصل لا ينام ولا ينيم

ثم ولي سليمان بن غالب مصر في ربيع الأول سنة إحدى ومائتين، فحاربه السري بن الحكم، ولكن هزم السري وأسر هو وابنه ميمون وسجنا في إخميم، واستقام الأمر لسليمان، فقال المعلى الطائي في ذلك:

إذا شن في أرض سليمان غارة ... أثار به نقعًا كثير المصائب
ألم تر مصرًا كيف داوى سقيمها ... على حين دانت للعدو المناصب
حماها ولولا ما تقلد أصبحت ... حبيسًا على حكم القنا والمقانب

ولكن أعيد السري مرة أخرى للولاية، وهرب سليمان إلى الجروي، وانتقم السري من كل أعدائه فأخذ يقتلهم ويصلبهم، حتى قامت فتنه إبراهيم بن المهدي ببغداد، واتصل إبراهيم بالجند في مصر، وأمرهم بخلع المأمون، والوثوب بالسري، فلبى دعوته جمع من المصريين منهم الحارث بن زرعة بالفسطاط والجروي بالوجه البحري وسلامة الطحاوي بالصعيد وعبد العزيز بن عبد الرحمن الأزدي، فحاربوا السري، وملك الجروي الإسكندرية، وأخرج الطحاوي عمال السري من الصعيد، وسار الجروي حتى التقى بجيش السري بشطنوف فهزم السري سنة ثلاث ومائتين وقتل ابنه ميمون بن السري فرثاه معلى الطائي بقوله:

لو رد غرب منية بشجاعة ... أحد لدافع ركنها ميمون

لـو كـان تجريـد الـسيوف يردهـا ... لحـماه منهـا منـصل وثمـين
مازلـت أطمـع في رجوعـك سالمًا ... ويروعنـي شـفقًا عليـك ظنـون
فلـيفجعن غـدا بقتلـك طـاهر[1] ... ولـيفجعن بقتلـك المـأمون

وقال أبو نجاد الحارثي في ذكر هذه الحروب:

جمـع رعاعـك يـا سري فإنهـا ... حـرب تحـس سـعيرها قحطـان
قتلـوا أبـا حـسن وجـروا شـلوه ... كالكلـب جـر بـشلوه الـصبيان
ولـت تجيـب وأسـلمته جيادهـا ... عـيلان يـوم تواكلـت عـيلان
فاسـتخرجوه ملبيًـا فـأتى بـه ... يجـري ويهـرج حولـه الـسودان
أبـشر فـإن أفـول نجمـك بعـده ... عـرض الـسماء ونجمـك الـدبران
لا تبـك فـالعقبى لإخوتـه غـدًا ... أو بعـده فكـما تـدين تـدان

وأشرف الجروي على الفسطاط وأراد أن يحرقها، فخرج إليه الفقهاء وسألوه الكف عن ذلك فانصرف عنها، ثم علم أن أهل الإسكندرية أخرجوا عامله، ودعوا للسري، فسار إليهم في رمضان سنة ثلاث ومائتين، وثار القبط بسخا فهزمهم الجروي فمدحه المعلى الطائي يخاطب الخليفة المأمون:

فقـل لأمـير المـؤمنين نـصيحة ... ومـا حـاضر شـيئًا كـآخر غائـب
لقـد حاطنـا عبـد العزيـز بـسيفه ... ولـولاه كنـا بـين قتـل وناهـب

وسار الجروي إلى الإسكندرية فقتل في سنة خمس ومائتين، واستطاع السري أن يهزم سلامة الطحاوي الثائر بالصعيد، وفي ذلك قال المعلى:

أراد الطحـاوي التـي لا شـوى لهـا ... فأوقـد نـارًا كـان بالنـار صـاليا
ودب لأقطـار الـبلاد بفتنـة ... فجاشـت بـسقم لا يجيـب المـداويا

(١) هو طاهر بن الحسين قائد الميمون.

وراسله من كان يخفي بفاقة ... وأصبح ذا ميل إليه مماليا
جنت ما استحق القتل يا صاح كفه ... وكل امرئ يجزي بما كان جانيا

وتوفي السري بالفسطاط بعد قتل الجروي بثلاثة أشهر، وولي بعده ابنه أبو النصر بن السري، وكان علي بن عبد العزيز الجروي قد خلف أباه، فأرسل ابن السري جيشًا لمحاربة ابن الجروي ولكن هزم هذا الجيش، واكتفى ابن الجروي بذلك فلم يتبع الجيش المنهزم، وحنق بعض المصريين عليه لذلك، وظهر هذا في قول سعيد بن عفير يخاطب ابن الجروي:

ألا من مبلغ عني عليًّا ... رسالة من يلوم على الركوك
علام حبست جمعك مستكفا ... «بشط ينوف» في ضنك ضنيك
وقد سنحت لك الغفران ممن ... رماك بجيشه الوهن الركيك
أمن بقيا فلا بقيا لمن لا ... يراها عند فرصته عليك

وفي سنة سبع ومائتين أرسل المأمون خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني واليًا على مصر، فامتنع ابن السري من تسليمها وحاربه، فانضم ابن الجروي إلى جيش خالد، واستمر القتال مدة طويلة، فمل الجيشان الحرب، وحدث أن ارتفع النيل في هذا الوقت، فسار خالد إلى الحوف، فلما رأى ابن الجروي ذلك أراد أن يخرج خالد بن يزيد عن ملكه، فمكر به حتى أنزله «نهيا» وهناك تركه ابن الجروي في جهد وصفه المعلى بقوله:

سلا خالدًا لما انجلى عنه شكه ... وأسلمه في عدوة البحر خاذله
فزالت أمانيه غداة سما لنا ... بعارض جيش يمطر الموت وابله

فلما انكشف النيل سار ابن السري إلى خالد وحاربه، فأسر خالد، وفي ذلك قال المعلى:

ألا لا أرى خيلًا أضر له الوغى ... وأجبن في الهيجاء من خيل خالد
وقواده أشرار كل قبيلة ... تمالوا على إسلامه في الشدائد
فما أسروا منه جبانًا معضدًا ... ولكن أبا شبلين عبل السواعد
فإن يقتلوه يقتلوا منه سيدًا ... شجاعًا جوادًا ماجدًا وابن ماجد
وإن كففوا عن قتله فهي منة ... لآل سري في مناط القلائد

ولما رأى المأمون هذه الثورات والفتن قسم مصر بين ابن السري وابن الجروي، فولي كل واحد منهما ما في يديه، فأقبل ابن الجروي على جمع الخراج، فقاومه قوم من أهل الحوف، وكتبوا إلى ابن السري يستمدونه على ابن الجروي، فتقابل الجيشان في «بُلْقِينة» واستمر القتال طويلًا حتى اضطر ابن الجروي إلى أن يفر إلى دمياط، وفي ذلك قال المعلى:

ألا هل أتى أهل العراقين وقعة ... لنا بحمى بلقين شيبت الولدا
وما كان منا قتلهم عن جهالة ... خطاء ولكنا قتلناهم عمدا
ولما تبينت المنية في القنا ... نكصت تنادي حين ضل الندا سعدا
فوليت على ربع المحلة هاربًا ... على إبله ما يركب الجور والقصدا
فكيف رأيت الله أنزل نصره ... علينا وولاك المذلة والطردا
سنهدي إلى المأمون منا نصائحًا ... نضمها طي الصحائف والبردا
بفعل علي والذي كان مجمعًا ... عليه بإظهار الخلاف الذي أبدا

وسار ابن السري إلى تنيس ودمياط، واضطر ابن الجروي إلى أن يهرب إلى الفرما والعريش، فخاطبه سعيد بن عفير بقوله:

ألا يا علي بن عبد العزيز ... إلى أين صرت تريد الفرارا
فلست بأول من كاده ... عدو فكر عليه اعتكارا

وأجـــر مـــصيرك أن تـــسحبوا إليـــك فتوحًـــا عظامًـــا كبـــارا
فتـــدرك ثـــأرك مـــن أهلـــه وتلـــبس بعـــد الكبـــو الفـــسارا[1]

فلما سمع ذلك ابن الجروي أغار على الفرما سنة تسع ومائتين، وهرب أصحاب ابن السري من تنيس ودمياط. وسار ابن الجروي حتى قابل جيش ابن السري بشطنوف، فهزم ابن الجروي ولحق بالعريش، فمدح المعلى الطائي ابن السري بقوله:

ألـــم تـــر خيلـــه صـــبحت عليًّـــا تـــدف عـــلى مناســـجها النـــساعا
فـــولى عـــن عـــساكره وخـــلى عـــلى الأســـل المـــدائن والرباعـــا
ولكـــن فـــات فـــوق أقـــب نهـــد كرجع الطرف لا يخشى اصطلاعا
فحـــسبك أن قومـــك مـــن جـــذام وســـعد لا تـــرى لهـــم اجتماعـــا
دعـــتهم طاعـــة لـــك فاســـتجابوا ومـــن عجـــب لمثلـــك أن يطاعـــا

وعاد ابن الجروي مرة أخرى سنة عشر ومائتين فملك تنيس ودمياط وهزم جيش ابن السري، ولم تهدأ هذه الفتن حتى دخل عبد الله بن طاهر مصر سنة إحدى عشرة ومائتين وأخذها من ابن السري، كما خضع له ابن الجروي.

وقامت في مصر فتن أخرى من أجل السلطان بين الأمويين والعباسيين، ويحدثنا ياقوت أنه في أيام المهدي خرج دحية الأموي بمصر ودعا لنفسه، واستمر إلى أيام الهادي، وكانت الدولة ترسل إليه الجيوش، فلم تستطع قهره وكانت نعم أم ولد دحية تقاتل في طليعة الجيش لا سيما في واقعة بويط، وفي هذا قال شاعرهم:

---

(١) الفسار: معرب كلمة فارسية (أفسر) بمعنى التاج.

فلا ترجعي يا نعم عن جيش ظالم ... يقود جيوش الظالمين ويجنب
وكرى بنا طردًا على كل سانح ... إلينا منايا الكافرين تقرب
كيوم لنا لا زلت أذكر يومنا ... بفاو ويوم في بويط عصبصب
ويوم بأعلى الدير كانت نحوسه ... على فئة الفضل بن صالح تنعب[1]

فهذه أشعار قيلت في حروب بين جيش الثائرين وجيوش الخليفة، ولو لم تحفظ هذه الأشعار ما كنا نعلم شيئًا عن هذه الوقائع، فإن كتب التاريخ التي وصلتنا لم تذكر تفاصيل هذه الحروب بل أغفلتها، ولكن الشعراء يفخرون دائمًا بما يحرزه أهلهم من نصر فيسجلون الوقائع في أشعارهم.

ونلاحظ أنَّ الشاعر استعمل في الأبيات السابقة كلمة أيام التي كان يستعملها العرب منذ الجاهلية.

من ذلك كله نستطيع أن نقول: إن الحوادث السياسية المصرية، والحروب الداخلية التي كانت في هذا العصر، قد أثرت في الأدب أثرًا كبيرًا، فقد اضطر الشعراء إلى أن يسجلوا هذه الحروب، وأن يدافعوا عن المتحاربين، ولكن أكثر هذا الشعر فُقد، ولو قُدر لهذا الشعر البقاء، لكان أصدق مرآة لهذه الحوادث الكثيرة المضطربة، ولكن الذي وصلنا منه قدر يسير، يعطينا صورة مصغرة مشوهة لهذه الحوادث.

ب- فتنة العصبية العربية:

ولعل أصدق صورة لعصبية القبائل في مصر هي هذه الحادثة التي ظهرت فيها العادات الجاهلية القديمة بأجلى مظاهرها. تلك هي حادثة

(١) معجم البلدان: ج٢، ص٣١١، (طبعة مطبعة السعادة سنة ١٩٠٦م).

«فرس مراد» المعروفة «بقضية جناح والزعفران»، ذلك أن عشيرة «مراد»كان لهم فرس يفخرون بها ويسمونها الزعفران، فأخرجت الفرس يوم الرهان، كما أخرجت عشيرة «يحصب» فرسًا لهم تسمى الجناح، وجعل كل فريق لصاحبه الفرس المسبوق، وجعلوا للسباق غايته، فخرج الطائفتان ومعهم عامة أهل مصر، فكان السابق فرس مراد في أول الأمر حتى كادت تدخل الغاية، فخرج كمين من يحصب وضرب وجه الزعفران فتحيرت الفرس، فسبقتها الجناح إلى دخول الغاية. ساء مرادا ذلك واستلوا سيوفهم واقتتل الطائفتان قتالًا عنيفًا حتى اضطر الأمير ليث بن فضل إلى أن يخرج إليهم ويحجز بينهم، وأحال أمرهم إلى القاضي عبد الرحمن العمري الذي ولي سنة ١٨٥هـ، وقد عُرف هذا القاضي بحبه للمال وأخذه الرشوة؛ فأتت يحصب بأموال عظيمة إلى القاضي، فحكم لهم بالفرس ودفع إليهم الزعفران؛ ولكن استمر النزاع حتى ولي القضاء القاضي البكري الذي ولي سنة ١٩٤هـ، فرد الفرس إلى مراد. هذا الحادث يذكرنا بصورة لها في أيام الجاهليين هي قصة «داحس والغبراء»، وكما كثر شعر الجاهليين في قصتهم أنشد المصريون شعرًا في قصتهم ولا سيما أن القاضي العمري كان مكروهًا من المصريين، ونقم عليه الشعراء فأخذوا هذا الحادث وسيلة إلى هجائه، فمن ذلك قول يحيى الخولاني[1]:

إن كان مُهْر أخي زوف أفات به ... ريب الزمان عليه جور زنديق
فكم يد لبني زوف وإخوتهم ... في آل فهر تغص الشيخ بالريق
إن حاكم عمري جار في فرس ... فسوف يرجعه عدل ابن صديق

(١) الكندي: ص٤٠٢ وما بعدها.

ومن الطبيعي أن نجد شعراء دافعوا عن القاضي العمري في هذه القضية؛ فمن ذلك قول عبد الله بن بجيرة من ولد معاوية بن حديج يرد على الشاعر يحيى الخولاني:

طلبت فما نلت حسن الطلب ... ورمت عظيمًا ولما تصب
وعوليت موتًا على رميهم ... بقوس الضلال ونبل الكذب
فإن كان في فرس عتبكم ... فعندي لكم فرس من قصب
وإلا فمهر كريم النجار ... قليل العظام كثير العصب

فأجابه يحيى:

ألا أيها الشاعر المنتدب ... يحامي عن العمري العطب
ورامي مراد وخولانها ... بنبل من الجهل غير الصيب
لعمرك ما أنقص العمري ... من الناس إلا كريم الحسب
ملا الأرض جورًا بأحكامه ... وأظهر فيها جميع الريب

ومن العصبية القبلية أيضًا فخر الحضارمة إذا ولي أحدهم؛ ففي سنة تسع وتسعين ومائة ولي القضاء لهيعة بن عيسى الحضرمي، فقال شاعرهم:

لقد ولي القضاء بكل أرض ... من الغر الحضارمة الكرام
رجال ليس مثلهم رجال ... من الصيد الجحاجحة الضخام[1]

وقال يزيد بن مقسم الصدفي:

يا حضرموت هنيئًا ما خصصت به ... من الحكومة بين العجم والعرب
في الجاهلية والإسلام يعرفه ... أهل الرواية والتفتيش والطلب

(١) الكندي: ص٤٢٦.

ج- فتن بين العرب والمصريين:

ولون آخر من ألوان العصبية العربية هو سمو العرب بأنفسهم وتعاليهم على غيرهم من الشعوب، حتى على من أسلم من هذه الشعوب، فقد كون العرب في مصر طبقة أرستقراطية -إن صح هذا التعبير- لم تقبل أن يسمو إليها المصريون، ولذا كانت العلاقات بين العرب والمصريين سيئة في العصر العباسي، وقام القبط بثورات عنيفة ابتغاء طلب المساواة بالعرب، ولكن هؤلاء استطاعوا أن يخمدوا الثورات المتوالية، ونلمح من الأشعار التي وصلتنا عن هذه الاضطرابات كيف كان العرب يترفعون على المصريين، حتى اضطر من أسلم منهم إلى أن يتخذ لنفسه نسبًا عربيًّا حتى يتساوى بالعرب؛ ولكن عرب مصر رفضوا أن ينتسب غير عربي إليهم، ولعل قضية أهل الحرس تبين علاقة العرب بالمصريين؛ ذلك أن جماعة من القبط أسلموا وعرفوا بأهل الحرس، ولا أدري لم سموا كذلك، ويغلب على ظني أنهم كانوا حرسًا للأمراء فعرفوا بذلك، تحرس العرب بهؤلاء القوم وآذوهم فجمع أهل الحرس نقودا من بينهم دفعوها إلى القاضي العمري ليثبت لهم نسبًا عربيًّا، وخرج بعضهم إلى الرشيد ببغداد يدعون له نسبًا، كما أتوا بجمع من أعراب الحوف الشرقي وبعض أعراب الشام ورشوهم بالمال، فشهدوا أمام القاضي أن أهل الحرس من العرب، وأن نسبتهم إلى بني حوتكة «من قضاعة» فقبل القاضي شهادتهم إلا شهادة حوى بن حوى بن معاذ العذري، وسجل لهم نسبًا بذلك فثار عرب مصر، وقام الشعراء يهجون القاضي وأهل الحرس؛ من ذلك قول يحيى الخولاني في هجاء حوى:

يا ليت أم حُوَى لم تلد ذكرًا ... أو ليت أن حويًا كان ذا خرس

كسا قضاعة عارًا في شهاته ... لله در حوى شاهد الحرس
شهادة رجعت لو أنها قبلت ... لألحق الزور منها العير بالفرس

وقول يحيى الخولاني أيضًا:

ومن أعجب الأشياء أن عصابة ... من القبط فينا أصبحوا قد تعربوا
وقالوا أبونا حوتك،وأبوهم ... من القبط علج حبله يتذبذب
وجاءوا بأجلاف من الخوف فادعوا ... بأنهم منهم سفاهًا وأجلبوا
ألا لعن الرحمن من كان راضيًا ... بهم رغمًا ما دامت الشمس تغرب[1]

وقال معلى بن المعلى الطائي في هجاء القاضي العمري:

كم كم تطول في قرانك ... والجور يضحك من صلاتك
تقضي نهارك بالهوى ... وتبيت بين مغنياتك
فاشرب على صرف الزما ... ن بما ارتشيت من الحواتك
إن كنت قد ألحقتهم ... عربًا فزوجهم بناتك
وليكشفن بما أتيـ ... ـت صدور قوم عن مساتك
وكأنني بمنية ... تسعى إليك بكف فاتك
أفقرته من ماله ... بقضية أو لم يؤاتك
لا تعجلن أبا الندى ... حتى تصير إلى وفاتك
إن المقامع تطلقن ... من الجحيم إلى مماتك
بل لو ملكت لسان أكثـ ... ـرهم ما وصلت إلى صفاتك[2]

ونلاحظ أن الشاعر هنا كنى القاضي بأبي الندى، وهي كنية اللص الذي ظهر سنة إحدى وتسعين ومائة، ثم نراه قد تهكم بالقاضي إذ دعاه أن يزوج

(١) الكندي: ص٣٩٩.
(٢) الكندي: ص٤٠١.

أهل الحرس من بناته، وهو حكم وضعي سار عليه المسلمون حتى أصبح من الأحكام الفقهية ذلك أن المولى لا يتزوج عربية. وبعد أن عزل القاضي العمري، أرسل عرب مصر وفدًا إلى الخليفة الأمين، فذكروا له ما فعل العمري بأهل الحرس، فكتب الأمين إلى القاضي البكري يأمره أن لا يمنح أحدًا من غير العرب اللحاق بالعرب، وأن يرد أهل الحرس إلى ما كانوا عليه من أنسابهم، فأمر البكري أهل الحرس بإقامة البينة، وجمع بعض أهل القناعة والعدالة من مصر فشهدوا أن أهل الحرس من القبط الذين أسلموا، فردهم القاضي إلى أصلهم ومزق سجلهم، ففرح عرب مصر بذلك، وقال معلى الطائي:

يا بني البظراء موتوا كمدًا ... واسخنوا عينًا بتخريق السجل
لو أراد الله أن يجعلكم ... من بني العباس طرًّا لفعل
لكن الرحمن قد صيركم ... قبط مصر من القبط سفل
كيف يا قبط تكونوا عربًا ... ومريس أصلكم شر الجيل

وقال أبو رجب العلاء بن عاصم الخولاني:

ولقد قمعت بني الخبائث عندما ... راموا العلا وتحوتكوا وتعربوا
فرددتهم قبطًا إلى آبائهم ... ونسبت أصلهم الذي قد غيبوا
وتركتهم مثلًا لكل ملصق ... نسبًا إذا التقت المحافل يضرب

وقال يحيى الخولاني:

اشكروا الله على إحسانه ... فله الحمد كثيرًا والرغب
رجع القبط إلى أصلهم ... بعد خزي طوقوه وتعب
ودنانير رشوها قاضيًا ... جائرًا قد كان فينا يغتصب

أخـــذ الأمـــوال مـــنهم خدعـــة وتـــولى عـــنهم ثـــم هـــرب
أبلـــغ البكـــري عنـــي أنـــه عـادل في الحكـم فـراج الكـرب[١]

كانت روح العصبية العربية ظاهرة واضحة أيام الأمويين والعباسيين مما جعل القبط يثورون، وكان أشد هذه الثورات أيام المأمون؛ إذ اضطر الخليفة نفسه إلى أن يحضر إلى مصر، وأن يقمع هذه الفتن بشدة وحزم، فلم يقم بعدها للمصريين قائمة، ثم إن العرب وجدوا أنفسهم في عهد المعتصم محرومين مما كان لهم من مزايا، فخمدت روح العصبية وصار العرب كالمصريين سواء بسواء، وبالرغم من أن بعض العلماء عطفوا على من أسلم من المصريين وعاملوهم كالعرب فولوا بعضهم الأعمال الهامة في الدولة، ولكن هذا لم يرض جمهور العرب فسخطوا؛ من ذلك ما روى أن بعض من أسلم من القبط وجدوا عطفًا من القاضي لهيعة بن عيسى، الذي ولي قضاء مصر مرتين في عهد المأمون، فقد فسح هذا القاضي مجلسه للمصريين، وألان جانبه لهم وألحق طائفة منهم في أعمال الدولة، فأسند كتابة القضاء إلى سعيد بن تليد - وكانت كتابة القضاء في ذلك العهد من أسمى ما يصبوا إليه الفقهاء- كما اتخذ شهودًا جعلهم بطانته منهم معاوية الأسواني وسليمان بن برد وغيرهما في نحو من ثلاثين رجلًا، فتقول العرب في القاضي مع علمهم بعلمه ودينه وسمو منزلته، وقد ظهر أقوال المصريين في أشعارهم من ذلك ما قاله الشاعر أبو شبيب أنيس بن دارم:

قـــــبح الله زمانًـــــا راس فيـــــه ابـــــن تليـــــد

(١) راجع قضية أهل الحرس بكتاب الولاة والقضاة للكندي: ص: ٣٩٧-٣٩٩، ومن ص: ٤١٣-٤١٥.

بعد مقراض وخيط ... وأبيرات حديد
وأبو الزنباع خناق ... غراميل العبيد
بعد سيف خشبي ... وسهام من حديد
وابن تدراق الأفاني ... ين البليد بن البليد
وابن بكار كراكير ... ر وغطاس الثريد
وأبو الروس المريس ... ي بن دباغ الجلود
واللقيط ابن بكير ... نطفة الفدم الطريد
وابن حارس الجير ... زة حلوان البريد
عصبة من طينة النيـ ... ـل ميامين الخدود
لبسوا بعد التبابي ... ن نفيسات البرود
لازموا المسجد ضلا ... لًا من الأمر الرشيد
لحوانيت بنوها ... بفنا كل عمود
وتَسَمَّوا وتَكَنَّوا ... بعد جرج وشنود
وألاحوا بجباه ... من نطاح الحصر سود
تحت أميال طوال ... كبراطيل اليهود
نصبوها كالمقاعي ... د على روس القرود
وتراهم للوصايا ... وعدالات الشهود
في مراء وجدال ... وقيام وقعود
وخشوع وابتهال ... وركوع وسجود
وعلى القسمة أضرى ... من تماسيح الصعيد
وأشاروا للهدايا ... بأبي عبد الحميد[1]

ومن ذلك أيضًا ما روى في قضية «ابن القطاس»، فقد كان سعيد بن زياد

(١) الكندي: ص٤٢٣.

الملقب بـ«ابن القطاس» ممن عرف بين المصريين بالعلم والفضل، وكان أحد الشهود الذين قبل بعض القضاة أمثال لهيعة بن عيسى وابن المنكدر وغيرهما شهادته، وكما كان أحد الذين يتولون التدريس في المسجد، فلما ولي محمد بن أبي الليث قضاء مصر رماه ابن القطاس بالبدعة، ودعا عليه، فنقل ذلك إلى القاضي، وأتى إلى القاضي من ذكر له أن ابن القطاس مولى لم يجر عليه عتق، وشهد آخرون بأنه مولى رجل من الأزد يقال له ابن الأبرش، وادعى ابن الأبرش رقبته، فأمر القاضي بحبس ابن القطاس خمسة أيام ونودي عليه في سوق الرقيق فاشتراه القاضي بدينار وأعتقه. وفي ذلك قال الجمل الأكبر في مدح القاضي:

وبطشت بالقطوس بطشة قائم ... بالحق غير مقصر ومبذر
ما زلت تفحص عن أمور شهوده ... في السر والعلن المبين الأظهر
فربطته في رقة ومنعته ... وطا الحرائر وهو غير محرر
هذا النداء، وهذه هاد لهم ... إن جاء فيه بغير فلس أقشر
يفتي وينظر في المكاتب دائبًا ... والعبد غير مكاتب ومدبر[1]

ومما لا شك فيه أن المصريين أنشدوا شعرًا كثيرًا جدًّا في علاقة عرب مصر بالمصريين؛ ولكن هذا الشعر فُقد ولم يبق منه إلا قدر يسير قد ذكرنا أكثره.

أثر محنة خلق القرآن:

أصاب مصر من فتنة خلق القرآن ما أصاب الأقطار الإسلامية الأخرى؛

(١) الولاة والقضاة للكندي: ص٤٥٧.

فقد روى الكندي أن المأمون طلب إلى أخيه أبي إسحاق المعتصم أن يكتب إلى نصر بن عبد الله كيدر أمير مصر أن يمتحن القضاة والشهود، فمن أقر منهم أن القرآن مخلوق وكان عدلًا؛ قُبلت شهادته وأقر بوضعه، وكان القاضي بمصر إذ ذاك هارون بن عبد الله فامتحن وأقر بأن القرآن مخلوق، وتبعه عامة الشهود وبعض الفقهاء، وهرب منهم من لم يوافق، وورد كتاب المعتصم على القاضي هارون بحمل الفقهاء في المحنة فاستعفى هارون من ذلك، فكتب ابن أبي دؤاد إلى محمد بن أبي الليث بالقيام في المحنة، وذلك قبل ولايته القضاء، فحمل البويطي وخشنام المحدث في جمع كثير غيرهما، ولما ولي الواثق سنة سبع وعشرين ومائتين أمر أن يؤخذ الناس بالمحنة، وورد كتابه على ابن أبي الليث الذي ولي القضاء سنة ست وعشرين ومائتين، فلم يبق أحد من فقيه ولا محدث ولا معلم حتى أخذ بالمحنة، وهرب كثير من الناس وملئت السجون بمن أنكر المحنة، كان «مطر» غلام ابن أبي الليث يأخذ قلانس العلماء أمثال هارون بن سعيد الأيلي. ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم وغيرهما ويسوقهم بعمائمهم، وفي هذا كله أنشد شعراء مصر؛ فمن ذلك ما قاله الحسين بن عبد السلام المعروف بالجمل الأكبر، وكان منقطعًا إلى مدح القاضي ابن أبي الليث في ذلك العصر:

فحميت قول أبي حنيفة بالهدى ... ومحمد واليوسفي الأذكر
وفتى أبي ليلى وقول فريقهم ... زفر القياس أخي الحجاج الأنظر
وحطمت قول الشافعي وصحبه ... ومقالة ابن علية لم تضجر
والمالكية بعد ذكر شائع ... أخملتها فكأنها لم تذكر
أعطتك ألسنة أتتك ضميرها ... وأتتك ألسنة بما لم تضمر

فأطفت بالأيلي[١] ينعق صائحًا ... في كل مجمع مشهد أو محضر
ومحمد الحكمي[٢] أنت أطفته ... وأخاه ينعق بالصياح الأجهر
كل ينادي بالقران وخلقه ... فشهرتهم بمقالة لم تشهر
لم ترض أن نطقت بها أفواههم ... حتى المساجد خلقه لم تنكر[٣]
لما أريتهم الردى متصورًا ... زعموا بأن الله غير مصور[٤]

وكان أحمد بن صالح قد هرب إلى اليمن في هذه المحنة، ولزم يوسف بن أبي طيبة منزله ولم يظهر، وحاول محمد بن سالم القطان الهرب؛ ولكن ظفر به فحمل إلى العراق، وهرب ذو النون المصري ثم رأى أن يرجع فأقر بالمحنة، وإلى هذا كله أشار الجمل بقوله:

أحجرت يوسف في خزانة بيته ... فطوته عنك وطالما لم يحجر
كفرت بك الأرضون حين سألتها ... خبر ابن صالح الخبيث الأكفر
جحدته أقطار البلاد فما على ... حركاته وسكونه من مظهر
وثوى ابن سالم خفية في بيته ... ثم امتطى غلس الظلام الأستر
فأتى به كعريج أو كأبي الندى ... والناس بين مهلل ومكبر[٥]

وأخذ القاضي في اضطهاد الفقهاء؛ من ذلك أن الفقهاء وشيوخ مصر إذ ذاك كانوا يرتدون القلانس الطوال ويبالغون فيها، فأمرهم ابن أبي الليث

---

(١) هو هارون بن سعيد الأيلي.
(٢) هو محمد بن عبد الله بن عبد الحكم.
(٣) أمر القاضي ابن أبي الليث أن يكتب على المساجد بالفسطاط: «لا إله إلا الله رب القرآن المخلوق». فالشاعر أشار في هذا البيت إلى ذلك.
(٤) الكندي: ص: ٥٤٢-٤٥٣.
(٥) شرحه.

بتركها، ومنعهم من لباسها وأمرهم أن يتشبهوا بزي القاضي فلم يأبهوا بأمره، فانتظر حتى أتى إليه عدد منهم وهو في مجلس حكمه، فأمر غلاميه عبد الغني ومطرًا أن يضربا رءوس الشيوخ حتى ألقوا قلانسهم على الأرض، وأخذها الصبيان والرعاع يلعبون بها، وفي ذلك قال الجمل:

وأخفت أيام الطوال وأهلها ... فرموا بكل طويلة لم تقصر
ما زلت تأخذهم بطرح طوالهم ... والمشي نحوك بالرءوس الحسر
حتى تركتهم يرون لباسهم ... بعد الجمال خطية لم تغفر
يتفزعون بكل قطعة خرقة ... يجدونها من أعين ومخبر
فإذا خلا بهم المكان مشوا بها ... وتأبطوها في المكان الأعمر
فلتن ذعرت طوالهم فلطالما ... ذعرت ومن مروا بها لم يذعر
لبسوا الطوال لكل يوم شهادة ... ولقوا القضاة بمشية وتبختر
مالي أراهم مطرقين كأنما ... دمغت رءوسهم بحمى خيبر[1]

هذا بعض ما وصلنا عن محنة الفقهاء في مصر، ومن يدري لعل المصريين أنشدوا في ذلك شعرًا كثيرًا يخالفون به المعتزلة لا سيما في مسألة خلق القرآن؛ إذ كان للمعتزلة في مصر حلقة زعيمها ابن صبيح[2] كانت تدافع عن خلق القرآن، ولكن يخيل إلي أن مذهب المعتزلة لم يجد له مكانًا في نفوس المصريين، حتى أن سيبويه المصري كان يقف في جمع كثير، وفي الحاضرين أبو عمران موسى بن رباح الفارسي المتكلم وأحد شيوخ المعتزلة بمصر، فكان سيبويه يصيح ويقول: الدار دار كفر، حسبكم أنه ما بقي في هذه البلدة العظيمة أحد

(١) الكندي: ص٤٦١.
(٢) القضاة للكندي: ص٤٥٢.

يقول: القرآن مخلوق إلا أنا وهذا الشيخ أبو عمران. فقام أبو عمران يعدو حافيًا خوفًا على نفسه حتى لحقه رجل بنعله[١].

بعض أغراض الشعر:

لم تكن هذه كل أغراض الشعر المصري في هذا العصر؛ بل نجد بجانب ذلك شعرًا قيل في المدح والهجاء والرثاء؛ أي في الأغراض التي لا تتصل إلا بالشاعر وعواطفه وميوله، وليس بعجيب أن نرى هذه الأغراض في الشعر المصري، فكل الشعر العربي في جميع عصوره لم يخل منها. ففي الجاهلية نرى الشعراء يمدحون ولكن مدحهم كان أقرب إلى الواقع، وأبعد عن المبالغة، ثم أخذ المدح يزداد مبالغة بازدياد الحضارة والركون إلى الرخاء، واضطر الشعراء إلى التزلف والتملق حتى ينالوا حظوة عند الأمراء والخلفاء.

وفي الشعر المصري نجد بعض الشعراء يقربون من شعراء الجاهليين في صدق مدحهم، ولا يسرفون في وصف الممدوح بما ليس فيه، فشعر سعيد بن عفير كان قريب الشبه من شعر زهير بن أبي سلمى الجاهلي، كلاهما لم يمدح بقصد النوال، وكلاهما كان يمدح خصال الرجل وخلقه أكثر من أي شيء آخر ولا لشيء، ففي مدح سعيد لهبيرة بن هشام الذي عذب وكاد يقتل لأنه أجار إبراهيم الطائي الثائر على الوالي المطلب الخزاعي ولم يقبل هبيرة أن يسلم إبراهيم للوالي، نرى الشاعر قد شبه هبيرة بالسموأل بن عاديا في الوفاء، ومدحه بجلده على تحمل العذاب في سبيل ذلك الوفاء.

لعمري لقد أوفى، وفاق وفاؤه هبيرة في الطائي وفاء السموأل

---

(١) أخبار سيبويه المصري لابن زولاق، نسخة خطية بدار الكتب المصرية.

وقـــاه المنايـــا إذ أتـــاه بنفـــسه ... وقـــد برقـــت في عـــارض متهلـــل
فـــما انفـــك محبوسًـــا ومطلـــب لـــه ... عليـــه قـــصيف بالوعيـــد المهـــول
فـــما زاده الإبعـــاد إلا تـــوقرًا ... وصـــبرًا ولم يخـــشع ولم يتفكـــل
إلى أن تجلـــت عنـــه أبـــيض ماجـــد ... كـــريم الثنـــا في المـــشهد المتـــدخل[1]

فسعيد هنا يمدح رجلًا كريمًا وفيًّا، ليس له سلطان ولا إمرة، ولم يطمع فيما كانت تصبو إليه نفوس الشعراء الآخرين. ونجد من ناحية أخرى بين الشعراء المصريين من تكسب بشعره كالشاعر المعلى الطائي الذي اتصل بكثير من الولاة والأمراء ومدحهم؛ بل كان لا يتحرج من أن يمدح أحدهم ثم يمدح عدوه إذا صار الأمر بيد ذلك العدو؛ من ذلك ما قيل: إنه اتصل بالسري وابنه ومدحهما، وكانا ثائرين على الولاة، ثم وقف بين يدي عبد الله بن طاهر تحت المنبر وقال له: أصلح الله الأمير أنا المعلى الطائي، وقد بلغ مني من جفاء وغلظ، فلا يغلظن على قلبك، ولا يستخفنك الذي بلغك، أنا الذي أقول:

يـا أعظـم النـاس عفـوًا عنـد مقـدرة ... وأظلـم النـاس عنـد الجـود للـمال
لـو أصـبح النيـل يجـري مـاؤه ذهبًـا ... لمـــا أشرت إلى خـــزن بمثقـــال
تغـلي بـما فيـه رق الحمـد تملكـه ... ولـيس شيء أعـاض الحمـد بالغـالي
تفـك باليـسر كـف العـسر مـن زمـن ... إذا اســتطال عــلى قــوم بــإقلال
لم تخـل كفـك مـن جـود لمختـبط ... ومرهـــف قاتـــل في رأس قتـــال
ومـا بثثـت رعيـل الخيـل في بلـدٍ ... إلا عـــصفن بـــأرزاق وآجـــال
إن كنـت منـك عـلى بـال مننـت بـه ... فـإن شـكرك مـن قلبـي عـلى بـالي[2]

(١) الكندي: ١٥٢، ١٥٣.
(٢) زهر الآداب: ج٢، ص١٨١، (المطبعة الرحمانية).

فسر الوالي وأجزل عطاءه، فالشاعر مدحه لجوده وطمعه في صلاته، ولعل أكثر شعراء هذا العصر تكسبًا بالشعر هو الحسين بن عبد السلام الشهير «بالجمل الأكبر» إذ اتصل بالقاضي محمد بن أبي الليث ومدحه ولم يأبه لصوت المصريين الذين سخطوا على القاضي، لسوء معاملته -وقدمنا مثلًا من ذلك كله في حديثنا عن محنة خلق القرآن- ثم نراه يتصل بأحمد بن المدبر والي خراج مصر، ويطلب منه العطاء كما كان يفعل مروان بن أبي حفصة مع معن بن زائدة الشيباني، فقد قيل: إن ابن المدبر كان من عادته أنه إذا مدحه شاعر ولم يرض بشعره، أمر من يحمله إلى المسجد ويأمره أن يصلي عددًا معلومًا يفرضه عليه، فعرف الشعراء ذلك، فدخل عليه الجمل الأكبر وأنشده:

قصدنا في أبي حسن مديحًا ... كما بالمديح تنتجع الولاة
فقلنا أكرم الثقلين طرًّا ... ومن كفيه دجلة والفرات
فقالوا يقبل المدحات لكن ... جوائزه عليهن الصلاة
فقلت لهم وما تغني صلاتي ... عيالي إنما تغني الزكاة
فأما إذ أبى إلا صلاتي ... وعاقتني الهموم الشاغلات
فيأمر لي بكسر الصاد منها ... فتصبح لي الصلاة هي الصلات
فيصلح لي على هذا حياتي ... ويصلح لي على هذا المات[1]

وظل هذا الشاعر يتكسب بالمدح حتى ولي أحمد بن طولون فآثره بمدحه وأخذ عطاءه، فاعتبره كثيرٌ من المؤرخين شاعر ابن طولون؛ ولكن المنية عاجلت الشاعر في أوائل حكم الطولونيين؛ أي في سنة ثمان وخمسين ومائتين.

(١) زهر الآداب: ج٢، ص١٨١، (المطبعة الرحمانية)، وتحفة المجالس للسيوطي: ص٣٥٥.

لا نكاد نجد بين أيدينا من الشعر الذي بقي لنا من هذا العصر معاني جديدة في المدح، بل اتخذ شعراء مصر نفس المعاني التي اتخذها غيرهم من شعراء العرب من وصف الممدوح بالجود والكرم والشجاعة، ولا نكاد نجد إلا أثرًا قليلًا لمصر في هذا الشعر كالذي رأيناه في شعر المعلى من ذكر «النيل»، ولعل روح الفكاهة المصرية قد أثرت أيضًا في شعر الشعراء كالذي نراه في الأبيات التي رويناها للجمل في مدح ابن المدبر.

كذلك نستطيع أن نقول عن الهجاء؛ فقد رأينا كيف كان الشعراء يهجون الولاة والقضاة في مصر، ويحصون مساوئهم، وأكثر شعراء هذا العصر هجاء هو الشاعر يحيى الخولاني الذي وقف بالمرصاد للقاضي العمري فرماه بالرشوة، وكناه أبا الندى، وهي كنية مصرية خالصة لم يعرفها شعراء العرب، ولم يذكرها إلا المصريون، وهجاه أيضًا بأنه كان يحب الغناء، وفي ذلك يقول الشاعر يحيى:

مر بنا راكب على فرس ... يا من رأى هربذًا[1] على فرس
فقلت: من ذا اللعين؟ قيل: أبو ... الندا غدًا مسرعًا إلى عرس
كيما يرى قينة ذكرت بها ... تشدو بصوت يخال كالجرس
أصبح في المخزيات منغمسًا ... وليس في غيرها بمنغمس[2]

كذلك الشاعر يحيى بن الفضل الذي هجا الوالي عنبسة بن إسحاق الضبي، ورماه بدين الخوارج وبالجنون؛ لأن الوالي كان يذهب إلى المسجد وهو ينادي في شهر رمضان بالسحور، فلم يعجب الشاعر ذلك وأرسل إلى

(١) هربذ كزبرج مفرد هرابذة قومة بيت النار للهند وخدم نار المجوس.
(٢) الولاة والقضاة: ص٤٠٠.

الخليفة يقول:

من فتى يبلغ الإمام كتابًا ... عربيًّا ويقتضيه الجوابا
بئس والله ما صنعت إلينا ... حين وليتنا أميرًا مصابا
خارجيًّا يدين بالسيف فينا ... ويرى قتلنا جميعًا صوابا
مر يمشي إلى الصلاة نهارًا ... وينادي السحور ضل وخابا[1]

والشاعر إسحاق بن معاذ بن مجاهد هجا القاضي المفضل بن فضالة فقال:

خف الله وارقد واتئد يا مفضل ... فإنك عن فصل القضاء ستسأل
وإنك موقوف به ومحاسب ... فدونك، فانظر كيف في الحكم تفعل
أفي العدل أن أقضي وأخرج متعبًا ... وتدني بفضل منك خصمي وتدخل
ويفتح إن يدنو له الباب جهرة ... ويغلق دوني إن دنوت ويقفل
وتقبل منمه في مغيبي شهوده ... وبينتي ليست إذا غاب تُقبل
فها أنذا أصبحت خصمك في الذي ... قضيت به والحق ما ليس يجهل
فاصغ إلي السمع منك وأنبني ... بأي وجوه الفقه أصبحت تعمل[2]

وقول سعيد بن عفير في هجاء الوالي الحسين بن جميل سنة تسعين ومائة:

ما كنت أحسب أن الحين يجمع ما ... أمسى بمصر من الأنذال في الأمر
أما الأمير فحنَّاج وصاحبه ... على الخراج سوادي من الأكر
هذا الهنائي[3] من الفسطاط يخلفه ... والباهلي[4] على أعماله الأخر

---

(١) الكندي: ص٢٠١.

(٢) الكندي: ص٣٨٠، ٣٨١.

(٣) الهنائي: هو كامل الهنائي الذي ولي الشرطة في ذلك الوقت.

(٤) الباهلي: هو معاوية بن صرد الذي ولي الشرطة بعد الهنائي.

كـل لـصاحبه شـكل يلائمـه فهـم سواسـية في اللـؤم كـالحمر
ومـا هنـاءة إلا ظلـف ذي يمـن والباهليون مأوى اللؤم من مضر
فـما يـسوغ لنـا عـيش فينفعنـا مع ما نرى لهم من رقة الخطر(١)

ولم يصلنا شيء من الهجاء بين الشعراء كالذي نراه بين شعراء الأقطار الإسلامية الأخرى، والهجاء الذي وصلنا يكاد يكون ذمًّا للمهجو دون تعرض لأسرته، فلم يسرفوا في الهجاء كما لم يسرفوا في المدح.

أمَّا الرثاء، فالمعروف أن من عادة المصريين منذ القدم الإسراف في البكاء والنحيب والعويل حزنًا لوفاة قريب أو صديق، وشعراء العرب كانوا يسرفون في الرثاء ويبكون، ولكن ما وصلنا من الشعر المصري في الرثاء يختلف تمام الاختلاف عن عادة المصريين وشعراء العرب، فقد قصر شعراء مصر رثاءهم على سرد مناقب الميت، وكيف لاقى الموت بشجاعة وجلد، ويتلقى الشاعر نعي الميت بصبر، عالمًا أن هذا مصير كل حي، كقول الشاعر سعيد بن عفير:

سـاقت عمـير إلى مـصر منيتـه بـإمرة لم يكـن فيهـا بمـسعود
حتـى أتتـه المنايـا وهـو ملتحـف ثـوبين من حبرات البأس والجود
فاذهب حميدًا فلا تبعد فكل فتى يومًا وإن كرمت أفعاله يودي(٢)

وقول سعيد أيضًا في رثاء هبيرة بن هشام بن حديج الذي قتل في حروبه مع السري سنة مائتين:

لعمـري لقـد لاقـى هُبَـيرة حتفـه بأفضل ما تلقى الحتوف السوارعُ

(١) الكندي: ص ١٤٢، ١٤٣.
(٢) الكندي: ص١٨٧.

بـــأنف حمـــي لم تخالطـــه ذلـــة ... وعـــرض نقـــي لم تَـــشنه المطـــامع
عـــشية يـــستكفيه مطلـــب الـــذي ... بـــه ضـــاق ذرعًـــا والمنايـــا كـــوارع
فـــما أنفـــك يحميـــه ويجعـــل نفـــسه ... لـــه جُنَّـــة حتـــى احتوتـــه المـــصارع
فلاقـــى المنايـــا فـــوق أجـــرد ســـابح ... وفي الكـــف مـــأثور مـــن الهنـــد قـــاطع
فبينـــا يخـــوض الهـــول مـــن غمراتـــه ... وأعـــداؤه مـــن حولـــه قـــد تجاشـــعوا
تقطـــر في أهويـــة عـــن جـــواده ... فـــصادفه حـــينٌ مـــن المـــوت واقـــع
فلـــم أر مقتـــولًا أجـــل مـــصابه ... عـــلى مـــن يعـــادي والـــذين يجـــامع
مـــن ابـــن حـــديج يـــوم أعلـــن نعيـــه ... وقـــام بـــه في النـــاس راء وســـامع[1]

وقد حفظت قصيدة في الرثاء تكاد تكون كاملة أنشدها الشاعر المعلى الطائي يرثي جارية له قيل إنه كان يحبها لأدبها وعلمها، وكانت شاعرة، وقيل أيضًا: إن المعلى باعها بأربعة آلاف دينار، فلما دخل عليها قالت له: بعتني يا معلى؟ قال: نعم. قالت: والله لو ملكت منك مثل ما تملك مني ما بعتك بالدنيا وما فيها. فاضطر المعلى إلى أن يرد الدنانير وأن يستقيل صاحبه ويعتذر إلى صاحبته[2]، وتوفيت بعد ثمانية أيام من هذا الحادث، فرثاها المعلى بقصيدة أرى أنها من آيات الشعر لجمال معناها، وسمو عاطفتها، ورشاقة لفظها.

أخذ الشاعر يناجي الموت ويعاتبه كأنه شخص ماثل أمام عينيه، ويتحدث إليه كما يتحدث إلى شخص يعرفه، فهو يلوم الموت لأنه اقتنص جاريته التي عبر عنها بشق نفسه، فهو لا يستطيع أن يهنأ بالنصف فقط، وهو يلوم الموت ويستعطفه استعطافًا أملاه عليه حزنه لفقدها، وحبه لها، فقال: إن

(١) الكندي: ص١٦٠.
(٢) العقد الفريد: ج٢، ص١٧٩.

الموت لم يرحم شبابها، ثم يأخذ في وصف عظامها اللينة، وشعرها وعينيها ومشيتها، ويترحم على ذلك كله، وأخيرًا يعاتب الموت مرة أخرى لأنه ترك حبيبته في قبر تلعب الريح بترابه، وتمتد إليه يد البلى، وأن أحدًا لا يستطيع زيارة هذا القبر لأن في زيارته الهلاك، ثم يناشد القبر أن يبقي على محاسنها، ويحفظ برها وظرفها. فالشاعر في هذه القصيدة حزين حقًّا، متألم أشد الألم لفراق جاريته؛ ولكنه حزن هادئ -إن صحَّ هذا التعبير- لم يرسل الدمع، ولم ينتحب، وهو في هذا الحزن يذكر أنه سيلتقي بها يوم القيامة:

يا موت كيف سلبتني «وصفا» ... قدمتها وتركتني خلفا
هلَّا ذهبت بنا معًا فلقد ... ظفرت يداك فسمتني خسفا[1]
وأخذت شق النفس من بدني ... فقبرته وتركت لي النصفا
فعليك بالباقي بلا أجل ... فالموت بعد وفاتها أعفى[2]
يا موت ما أبقيت لي أحدًا ... لما رفعت إلى البلى «وصفا»
هلا رحمت شباب غانية ... ريا العظام وشعرها الوحفا[3]
ورحمت عيني ظبية جعلت ... بين الرياض تناظر الخشفا[4]
تقضي إذا انتصفت مرابضة ... وتظل ترعاه إذا أغفى
فإذا مشى اختلفت قوائمه ... وقت الرضاع فينطوي ضعفا
متحيرًا في المشي مرتعشًا ... يخطو فيضرب ظلفه الظلفا
فكأنه «وصف»إذا جعلت ... نحوي تحير محاجرًا[5] وطفا[1]

---

(١) الخسف: الذل والهوان.

(٢) أعفاه من الأمر برأه.

(٣) الوحف: الشعر الكثير الأسود.

(٤) الخشف -مثلة-: ولد الظبي أول ما يولد.

(٥) حار يحار ويحتر واستحار: نظر إلى الشيء.

يـا مـوت أنـت كـذا لكـل أخ ... إلـف يـصون بـبره الإلفـا
خليتنـي فـردًا وبنـت بهـا ... مـا كنـت قبلـك حـاملًا وكفـا(٢)
فتركتهـا بـالرغم في جـدث ... للـريح ينـسف تربـه نـسفا
دون المقطـم لا يلبـسها ... في زينـة قلبًـا ولا شـنفا
أسـكنتها في قعـر مظلمـة ... بيتًـا يـصافح تربـه السقفا
بيتًـا إذا مـا زاره أحـد ... عـصفت بـه أيـدي البلى عـصفا
لا نلتقـي أبـدًا معاينـة ... حتـى نقـوم لربنـا صـفا
لبـست ثيـاب الحتـف جاريـة ... قـد كنـت ألـبس دونهـا الحتفـا
فكأنهـا والـنفس زاهقـة ... غـصن مـن الريحـان قـد جفـا
يـا قـبر أبـق عـلى محاسـنها ... لقـد حويـت الـبر والظرفـا(٣)

فأنت ترى الشاعر عميقًا في حزنه، مستسلمًا لما رزئ به، ولكنه لم يذكر بكاءه كغيره من الشعراء؛ إذ لا نكاد نجد قصيدة في الرثاء بدون دمع منهمر، فالبكاء عند الشعراء مظهر من مظاهر الحزن، وهو أيضًا يدل على بساطة في الحياة وسذاجة في الشعور، فكما أن الطفل الصغير يبكي إذا تألم، والمرأة تبكي إذا أغضبها شيء، كذلك شعراء العرب كانوا يبكون إذا رثوا، ولا أدري لم لم يتبع شعراء مصر في هذا العصر سُنة شعراء العرب أو طريقة المصريين في المآتم.

أمَّا حياة اللهو والمجون ومجالس الخمر والغزل فلا أكاد أجد لها ذكرًا فيما وصلنا من الشعر في هذا العصر، ولا أستطيع أن أقول: إنه لم يوجد في مصر

(١) محاجر، جمع محجر: ما دار بالعين.
(٢) الوطف: كثرة شعر الحاجبين والعينين.
(٣) العقد الفريد: ج٢، ص١٧٩.

شعراء لهوا كما لها غيرهم، وتغزل كما تغزل غيرهم، وحياة مصر وأعيادها كانت تدعو إلى أن يتحدث عنها الشعراء، ويكفي أن أنقل شيئًا مما ذكره المقريزي عن أعياد المصريين، فقد قال في حديثه عن عيد الشهيد: «ومما كان يعمل بمصر عيد الشهيد، وكان من أنزه أفراح مصر، وهو الثامن من بشنس، ويكون لذلك اليوم عيد ترحل إليه النصارى من جميع القرى، ويركبون فيه الخيل، ويلعبون عليها، ويخرج عامةُ أهل مصر على اختلاف طبقاتهم، وينصبون الخيم على شطوط النيل وفي الجزائر، ولا يبقى مغن ولا مغنية، ولا صاحب لهو، ولا رب ملعوب، ولا بغي، ولا مخنث، ولا ماجن، ولا خليع، ولا فاتك، ولا فاسق، إلا ويخرج لهذا العيد فيجتمع عالم عظيم لا يحصيهم إلا خالقهم، وتصرف أموال لا تنحصر، ويتجاهر هناك بما لا يحتمل من المعاصي والفسوق، وتثور فتن، وتقتل أناس، ويباع من الخمر خاصة في ذلك اليوم. وكان اجتماع الناس لعيد الشهيد دائمًا بناحية شبرا[١].

وقد ظل هذا العيد بمصر إلى أن أمر بإبطاله الأمير بيبرس سنة ٧٠٢هـ. ومن هذه الأعياد أيضًا عيد الغطاس، وفيه يشارك المسلمون النصارى، وفي هذا العيد لا يتناكرون كل ما يمكنهم إظهاره من المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجوهر، والملاهي والعزف والقصف، وهي أحسن ليلة تكون بمصر، وأشملها سرورًا[٢]، وقد شاهد المسعودي عيد الغطاس سنة ثلاثين وثلاثمائة هجرية ووصفها، ومنع المصريون سنة سبع وستين وثلاثمائة من إظهار ما كانوا يفعلونه في الغطاس، ثم سمح لهم سنة ثمان

(١) المقريزي: ج١، ص١١٠.

(٢) المقريزي: ج٢، ص٢٦.

وثلاثمائة. وكذلك عيد الصليب؛ وفيه كان المصريون يخرجون إلى خارج الفسطاط، ويتظاهرون بالمنكرات والمحرمات، وقد أبطل هذا العيد سنة اثنين وأربعمائة أيام الحاكم الفاطمي[١].

من الطبيعي أنه كان بين الشعراء في هذا العصر من شارك الناس في لهوهم وعبثهم، وأنشد شعرًا في هذه الحياة الصاخبة الماجنة، ولكن هذا الشعر فقد ولم يبق منه ما يدل عليه، فلم يروه الرواة، ولم يدونه المؤرخون، ولا أستطيع أن أعلل ذلك. وكذلك لم يصلنا شعر في وصف الخمر مع أن الكندي يحدثنا أن العلويين خرجوا بمصر أيام الوالي يزيد بن حاتم، فأرسل الوالي إلى أصحابه، فجعلوا يأتونه سكارى، فقال لهم: إن نضوحكم الليلة لكثير[٢]. وخشي الوالي علي بن سليمان عاقبة انتشار الخمر بين المصريين فأمر بمنع الملاهي والخمور في أيامه[٣]، ومع ذلك كله لم يصلنا شعر في مجالس الخمر ولا في وصفها. وكان بمصر قيان ومغنون شأنها في ذلك شأن كل الأقطار الإسلامية. ويحدثنا الكندي أن القاضي العمري كان يشدو بأطراف الغناء على مغاني أهل المدينة، ويبرز كثيرًا في مجالسه، ولا يتحاشى أن يقول هذا غنى به ابن سريح، وهذا به الدلال، وهذا من جيد غناء الغريض، ولم يكن بمصر مسمعة إلا ركب إليها، وسمع غناءها، وربما قوم ما انكسر من غنائها، ويرى ذلك من الدين[٤]، وقد هجاه خصومه بذلك، فقال يحيى الخولاني:

---

(١) المقريزي: ج٢، ص٢٩.

(٢) الكندي: ص١١٣.

(٣) الكندي: ص١١٣.

(٤) الكندي: ص٣٣٩.

ألا قـــم فانـــدب العربـــا ... وبـــك الـــدين والحـــسبا
ولا تنفـــك تبكـــي العـــد ... ل لمـــا بـــان فاغتربـــا
لقـــد أحـــدثت قـــاضي الـــسو ... ء في فـــسطاطنا عجبـــا
يظـــل نهـــاره يقـــضى ... بغـــير العـــدل منتـــصبا
ويـــسهر ليلـــه لـــسما ... عـــه القينـــات والطربـــا
ويـــشربها معتقـــة ... عقـــارًا تـــشبه الـــذهبا
ويعجبـــه ســـماع العـــو ... د والمزمـــار يـــا عجبـــا
فيـــا للنـــاس مـــن قـــاض ... يحـــب اللهـــو واللعبـــا[1]

نستطيع أن ندرك كيف أخذ المصريون على القاضي كلفه بالغناء وإعجابه بسماع العود والمزمار، وشرب الخمر؛ في حين أن خلفاء العباسيين في بغداد كانوا يلهون ويمجنون، ويظهرون اللهو والمجون ويشاركون في هذه الحياة الشعراء والندماء.

الشعراء الوافدون:

لم ينقطع في هذا العصر أيضًا وفود الشعراء على مصر لمدح الولاة والأمراء؛ بل كان بين الولاة أنفسهم من أنشد الشعر، كالوالي الفضل بن صالح المتوفى سنة ١٧٢ هـ؛ فقد كان شاعرًا فصيحًا أديبًا، ومن شعره:

عـاش الهـوى واستـشهد الـصبر ... وعـــاث في الحـــزن والـــضر
وســـهل التوديـــع يـــوم نـــوى ... مـــا كـــان قـــد وعـــره الهجـــر[2]

والوالي عبد الله بن طاهر الذي ولي مصر سنة إحدى عشرة ومائتين كان

(١) شرحه: ص٤٠٠.
(٢) النجوم الزاهرة: ج٢، ص٦١.

بارع الأدب حسن الشعر[١]، ومن شعره ما أرسله للخليفة المأمون، وقد أمره بالزيادة في الجامع العتيق فكتب له ابن طاهر:

أخـــي أنـــت ومـــولاي ومـــن أشـــكر نعـــماه
فـــما أحببـــت مـــن شيء فـــإني الـــدهر أهـــواه
ومـــا تكـــره مـــن شيء فـــإني لـــست أهـــواه
لـــك الله عـــلى ذاك لـــك الله لـــك الله[٢]

وكان الوالي يزيد بن حاتم الذي ولي سنة أربع وأربعين ومائة مقصدًا للناس لكرمه، محبًّا للشعر وأهله[٣]، قصده كثير من الشعراء منهم ربيعة بن ثابت الرقي، قيل: إنه مدح يزيد، فتشاغل هذا عنه ببعض الأمور، واستبطأه ربيعة فرحل عن مصر وقال:

أراني ولا كفـــران لله راجعًـــا بخفـي حنين من نوال ابن حاتم

فبلغ هذا القول يزيد، فأرسل في استدعاء الشاعر ورده إلى مصر، فلما دخل عليه قال له: أنت القائل: «أراني ولا كفران؟». قال: نعم. قال: هل قلت غير هذا؟ قال: لا. والله لترجعن بخفي حنين مملوءة مالًا!! فأمر بخلع خفيه، وأن تملأ له مالًا، ثم قال له: أصلح ما أفسدت من قولك. فما قاله الشاعر في مدح يزيد لما عزل عن مصر:

---

(١) شرحه: ج٢، ص١٩٢.

(٢) شرحه، وقد وردت هذه الأبيات في كتاب الولاة للكندي: ص١٨١، مع اختلاف يسير، ولكن الكندي روى أن ابن طاهر أرسل هذه الأبيات مع طلب الأمان لعبد الله بن السري الذي تحدثنا عنه.

(٣) النجوم الزاهرة: ج٢، ص٢.

بكي أهل مصر بالدموع السواجم غداة غدا منها الأغر ابن حاتم[١]

ويذكر السمعاني أن المسهر التميمي الشاعر وفد أيضًا على ابن حاتم ومدحه وأجزل الأمير عطاءه، كما قصده الشاعر محمد بن عبد الله بن مسلم المعروف بابن المولى ومدحه بقصيدة طويلة منها:

وإذا تباع كريمة أو تشترى فسواك بائعها وأنت المشتري[٢]

ومن قوله أيضًا في مدح يزيد:

يا واحد العرب الذي أضحى وليس له نظير
لو كان مثلك آخر ما كان في الدنيا فقير

ويحدثنا الطبري أن البطين الحمصي الشاعر وفد على مصر بصحبة الوالي عبد الله بن طاهر[٣].

أبو نواس في مصر:

وفي هذا العصر وفد أبو نواس على مصر، ولمكانة أبي نواس في الشعر، ولكثرة ما حفظ لنا من شعره في مصر، رأينا أن نطيل بعض الشيء في الحديث عنه في مصر.

حدثنا جامع أخبار أبي نواس[٤] أن الشاعر خرج إلى مصر متنكرًا في زي الشطار مع سليمان بن أبي سهل، فلما دخل على الخصيب ازدراه هذا

(١) العقد الفريد: ج١، ص١٥٦، والنجوم الزاهرة: ج٢، ص٢.
(٢) النجوم: ج٢، ص٢.
(٣) تاريخ الطبري، حوادث سنة ٢١٠هـ.
(٤) أخبار أبي نواس، نسخة خطية بدار الكتب المصرية.

واستخف به، ثم أرسل أبو نواس كتبًا إلى الخصيب فلم يستنشده، فكان ينصرف مهمومًا، وعلم المصريون بوجود أبي نواس بينهم، فهرعوا إليه، واستمعوا إلى شعره وكتبوه، فأنشد بعضهم هذا الشعر إلى الخصيب، فاستحضره وأنشده قصيدته التي مطلعها:

أجـــارة بيتينـــا أبـــوك غيـــور ومـيـسور مـا يرجـى لـديك عـسير

وهذه الرواية لا يصدقها عاقل إذ كيف يرفض أمير أن يستمع لأبي نواس مع مكانته في عالم الشعر إذ ذلك؟! ففي الوقت الذي كان ينشد فيه أبو نواس الخليفة في بغداد، وينادم ولي العهد، يرفض أمير مصر أن يستمع إليه! هذا ما لا أستطيع قبوله. وهناك رواية أخرى ذكرها صاحب أخبار أبي نواس أيضًا، تحدثنا أن الخصيب هو الذي استزار أبا نواس فشخص هذا إليه، وبينما هو في طريقه صادف قومًا من أهل الأدب لهم شرف وهيبة، فآنسهم ومضوا جميعًا حتى دخلوا معه مصر، فسار أبو نواس إلى الخصيب الذي أحسن مقابلته وسأله عن خبره في رحلته واستنشده.

هذه الرواية تناقض السابقة، وهي أقرب إلى الصواب؛ لأن أبا نواس كان معروفا في ذلك العصر في كل البلاد الإسلامية وينشد شعره الأدباء؛ بل نرى بعضهم قد تتبع أخبار أبي نواس وتنقلاته؛ كالذي قيل: إن النضر بن أمية الحمصي الشاعر قال: إنه لما خرج أبو نواس من بغداد إلى مصر، كتب الناس ببغداد إلى أهل الشام بذلك، فلم يزل القوم في الشام يرقبون قدومه حتى قدم.

ويحدثنا السيوطي أن أهل الأدب بمصر لما عرفوا قدوم أبي نواس هرعوا

إليه واستنشدوه، فكان يجلس في المسجد الجامع والناس حوله ينشدهم أشعاره وهم يكتبون[١]. فهذا يدلنا على أن أبا نواس لم يكن بالشاعر المجهول عند المصريين وغير المصريين، ولذلك فإني أرجح هذه الرواية الأخيرة.

أما الخصيب الذي استقدم الشاعر فلا نكاد نعرف عنه شيئًا، ولم يذكره المؤرخون بين ولاة مصر وأمرائها، ولكن جامع ديوان أبي نواس قال: هو الخصيب بن عبد الحميد العجمي ثم المرادي أمير مصر، وهو دهقان من أهل المزار شريف الآباء، وكان رئيسًا في أرضه فانتقل إلى بغداد وصار كاتب مهرويه الرازي، ثم انتقل إلى الإمارة[٢].

وفي حديث المقريزي عن المدن قال: منية الخصيب، هذه المدينة تنسب إلى الخصيب بن عبد الحميد صاحب خراج مصر[٣]، ولكن كتب التاريخ لم تذكر الخصيب أيضًا بين ولاة خراج مصر، وإذا أمعنا في دراسة ولاة مصر وأمرائها في عصر الرشيد، نجد المؤرخين قد أهملوا ذكر صاحب الخراج في سنة ١٨٠هـ وسنة ١٨٣هـ وسنة ١٨٩هـ؛ أي أن الخصيب كان أميرًا على خراج مصر في إحدى هذه السنين، والذي أرجحه أنه كان في سنة ١٨٩هـ؛ إذ هي السنة التي ولي فيها عبد الله بن محمد على مصر، وفي سنة ١٩٠هـ جعل على الشرطة أحمد بن حوى، وعلى الصلاة هاشم بن حديج، وقد ورد ذكر هذين الأميرين في شعر أبي نواس، وإذن فقد كان أبو نواس في مصر سنة ١٩٠هـ.

تكاد تجمع الروايات على أن أول قصيدة أنشدها أبو نواس في مصر هي

(١) تحفة المجالس للسيوطي: ص٣٣٧.

(٢) ديوان أبي نواس: ص٧٧، طبع مصر سنة ١٣٢٢.

(٣) خطط المقريزي: ج١، ص٣٣١.

قصيدته الرائية:

أجـــارة بيتينـــا أبـــوك غيـــور ... وميـسور مـا يرجـى لـديك عـسير

وفيها يقول:

تقـول التي عـن بيتهـا خـف مركبي ... عزيـــز علينـــا أن نـــراك تـــسير
أمـــا دون مـــصر للغنـــى متطلـــب ... بـــلي ... إن أسـباب الغنـى لكثـير
فقلـــت لهـــا واســـتعجلتها بـــوادر ... جـــرت فجـــرى في جـــريهنَّ عبـــير
ذرينـــي أكثـــر حاســـديك برحلـــة ... إلى بلـــد فيـــه الخـــصيب أمـــير[1]

وهو في هذه القصيدة يصف رحلته من العراق، ويذكر المدن التي مر بها، ثم يحدثنا عن طمعه في نوال الخصيب، بل هو في كل شعره الذي أنشده في مدح الخصيب كان يتحدث دائمًا عن أمله في العطاء الجزيل، ويمني نفسه بالمال الكثير:

يـــا ابنتـــي أبـــشري بمـــيرة مـــصر ... وتمنـــــي وأسرفي في الأمـــــاني
أنـــا في ذمـــة الخـــصيب مقـــيم ... حيـــث لا تعتـــدي صروف الزمـــان
قـــد علقنـــا مـــن الخـــصيب حبـــالًا ... آمتنـــا طـــوارق الحـــدثان[2]

وقوله أيضًا:

وإني جـــدير إذ بلغتـــك بـــالمنى ... وأنـــت بـــما أملـــت منـــك جـــدير

وفي قصيدة أخرى قال:

أنـــت الخـــصيب وهـــذه مـــصر ... فتـــــدفقا فكلاكـــــما بحـــــر

(١) ديوان أبي نواس: ص٨٠، وأخبار أبي نواس لابن منظور، ص٢٣٧.
(٢) ديوان أبي نواس: ص٧٨.

لا تقعدا بي عن مدى أملي ... شيئًا فما لكما به عذر
ويحق لي إذ صرت بينكما ... ألا يحل بساحتي فقر
النيل ينعش ماؤه مصرًا ... وندالك ينعش أهله الغمر[1]

فلولا هذا الطمع في المال ما أتى أبو نواس من بغداد إلى مصر، وقد ولد الأمل في نفسه ثقة بأن الخصيب سيغدق عليه العطاء، فإذا الشاعر صادق في مدحه للخصيب مغتبط بحضوره إلى مصر، عظيم الأمل في الثروة، والخصيب كان يعطف على الشاعر ويعطيه، حتى قال ابن منظور: إن الخصيب أعطاه أول يوم ألف دينار، وأعطاه مثلها ثاني يوم، وأعطاه ألفًا أخرى ثالث يوم، وقربه الخصيب إليه ونادمه.

وهذا المدح الذي أنشده أبو نواس للخصيب يختلف عن مدح المتنبي لكافور الإخشيدي، إذ كان المتنبي كاذبًا في مدحه، كان يصانع كافورًا ويجامله، ويخشى نزواته، وكان يظهر في شعره التكلف في المدح؛ ومع ذلك فقد كانت نهايته أيام الشاعرين في مصر تكاد تكون واحدة، إذ اضطر أبو نواس أخيرًا إلى أن يهجو الخصيب، وأن يرميه بالبخل، وقيل: إن سبب هذا الهجاء هو أن أبا نواس كان يكره شراب مصر، وكان الخصيب يخص نفسه بشراب يحمل إليه، فغضب أبو نواس وهجاه بقوله:

يخص خصيب بالشراب ويرتجي ... لديه نوالًا إن ذا لعجيب
وليس خصيب بالخصيب لضيفه ... ولكنه وعر المحل جديب
فمن كان ذا أهل بمصر وثروة ... فإني بها صفر اليدين غريب

(١) شرحه: ص٨٠.

وهجاه مرة أخرى بقوله:

نفس الخصيب جميعه كذب ... وحديثه لجليسه كرب
تبكي الثياب عليه معوله ... أن قد يجر ذيولها كلب

وقال مرة أخرى:

خبز الخصيب معلق بالكوكب ... يحمي بكل مثقف ومسطب
جعل الطعام على بنيه محرمًا ... قوتًا وحلله لمن لم يسغب
فإذا هم رأوا الرغيف تطربوا ... طرب الصيام إلى أذان المغرب[1]

وهكذا انتقل أبو نواس من مدح الخصيب إلى هجائه، ويغلب على ظني أن الخصيب لم يف بوعده لأبي نواس، أو أن أبا نواس كان يطمع في أضعاف ما ناله من الخصيب، كما كان الحال بين كافور والمتنبي بعد ذلك بقرن ونصف تقريبًا.

ونجد في ديوان أبي نواس بعض قصائد في هجاء هاشم بن حديج الكندي، وفي كتاب «أخبار أبي نواس» عدة أبيات في هجاء معاوية بن حديج الفيلسوف، مما يدل على أن أبا نواس كان على صلة ببني حديج الذين كان لهم شأن كبير في تاريخ مصر الإسلامية، ومؤسس هذه الأسرة في مصر هو معاوية بن حديج التجيبي الكندي، وفد على مصر في جيش الفتح، وكان رسول عمرو بن العاص إلى الخليفة يبشره بفتح الإسكندرية، وكان رابع أربعة عينهم عمرو على خطط الفسطاط، وبعد مقتل الخليفة الثالث كان ابن حديج زعيم العثمانية بمصر؛ إذ بايعه المصريون على الطلب بدم الخليفة

(١) الديوان: ص١٦٢.

المقتول، فقام محمد بن أبي حذيفة ولكن ابن حديج اضطر إلى أن يهرب إلى دمشق، ثم عاد إلى مصر لانتزاعها من أيدي العلويين، وهو الذي قتل محمد بن أبي بكر وألقاه في جيفة حمار وأحرقه. كان هذا الرجل رأس أسرة بني حديج الذين أصبح منهم بعض الأمراء والقضاة كعبد الرحمن بن معاوية بن حديج الذي خرج ببيعة أهل مصر للوليد بن عبد الملك الأموي، وعبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية الذي ولي مصر من قبل أبي جعفر المنصور سنة ١٥٢هـ، وفي سنة ١٩٠ -وهي السنة التي فيها كان أبو نواس في مصر كما رجحت- صرف عبد الله بن محمد العباسي عن ولاية مصر، فخرج واستخلف عليها هاشم بن عبد الله بن عبد الرحمن، وهو الذي هجاه أبو نواس.

أمَّا سبب هذا الهجاء فقد ذكر جامع ديوان أبي نواس أن الشاعر مدح هاشمًا فلم يعطه شيئًا فهجاه، ونقل عن كتاب الروضة للمبرد أن هاشمًا أراد أن يستبقي أبا نواس عنده في مصر فرفض هذا البقاء، وخرج من مصر يهجو هاشمًا ويهجو المصريين:

قفوا معشر الراحلين اسمعوا ... أنبئكم عن بني كنده
وردنا على هاشم مصره ... فبارت تجارتنا عنده
رأيتك عند حضور الخوا ... ن شديدًا على العبد والعبده[1]

ونراه في هذا الهجاء يعير بني حديج بقتل محمد بن أبي بكر الصديق:

فإن حديجًا له هجرة ... ولكنها زمن الرده

(١) ديوان أبي نواس: ص١٣٨.

وما كان إيمانكم بالرسول ... سوى قتلكم صهره بعده
وما كان قاتله في الرجال ... بحمل لطهر ولا رشده[١]

وقوله:

يا هاشم بن حديج ليس فخركم ... بقتل صهر رسول الله بالسدد
أدرجتم في إهاب العير جثته ... فبئس ما قدمت أيديكم لغد

ولكن يخيل إليَّ أن هناك سببًا آخر لهجائه بني حديج يضاف إلى ما ذكره جامع ديوان أبي نواس، فقد كانت المنافسة التي بين أحمد بن حوى العذري وهاشم بن حديج شديدة جدًّا، وتجلت هذه المنافسة في قضية أهل الحرس التي تحدثنا عنها، كان أبو نواس شديد الصلة بابن حوى حتى أن الشاعر هجا كل المصريين إلا ابن حوى.

دم المكارم بالفسطاط مسفوح ... والجود قد ضاع فيها وهو مطروح
يا أهل مصر لقد غبتم بأجمعكم ... لما حوى قصب السبق المساميح
أموالكم جمة والبخل عارضها ... والنيل مع جوده فيه التماسيح
لولا ندى ابن حوى أحمد نطقت ... مني المفاصل فيكم والجواريح[٢]

وفي قصيدته السينية التي هجا بها هاشم بن حديج قال:

ما منك سلمى ولا أطلالها الدرس ... ولا نواطق من طير ولا خرس
يا هاشم بن حديج لو عددت أبا ... مثل القلمس لم يعلق بك الدنس
إذ أصبح الملك النعمان وافده ... ومن قضاعة أسرى عنده حبس
فابتاعهم بإخاء الدهر ما عمروا ... فلم ينل مثلها من مثله أنس

(١) شرحه: ص١٣٩.
(٢) ديوان أبي نواس: ص ١٢٧، ١٢٨.

أورحت مثل حوى في مكارمه هيهات منك حوى حين يلتمس[١]

ومع ذلك كله فقد عاد أبو نواس إلى نفسه، وذكر نسبه في اليمنية، وأن اليمنية تجمع بينه وبين هاشم بن حديج، فعاتب نفسه واعتذر إلى هاشم عن هذا الهجاء.

أهاشم خذ مني رضاك وإن أتى رضاك على نفسي فغير ملوم
فأقسم ما جاوزت بالشتم والدي وعرضي وما مزقت غير أديمي
فعذت بحقوى هاشم فأجارني كريم أراه فوق كل كريم
وإن امرأ أغضى على مثل زلتي وإن جرحت فيه لعين حليم

تطاول فوق الناس حتى كأنما يرون به نجمًا أمام نجوم[٢]

أمَّا صلة أبي نواس بشعراء مصر، فحدثنا السيوطي أن أدباء مصر وشعراءها تسابقوا لمصاحبة أبي نواس، وكتابة شعره، وكان بينهم رجل يعرف بالحسن بن عمر الأجهري؛ كان شاعرًا ضعيف الشأن، فأراد أن يعلي شأنه، فهجا أبا نواس بقوله:

ألا قل للنواسي الضعيـ ـف الحال والقدر
خبرنا منك أحوالًا فلم نحمدك في الخبر
وما إن ذعت بالمنظر ولكن ذعت بالذكر

وكان هذا الشاعر من أوحش الناس صورة، فنظر إليه النواسي وقال:

---

(١) ديوان أبي نواس: ص١٣٩.
(٢) شرحه: ص١٢٦.

بماذا أهجوك، وبأي شيء أصفك، وقد سبقني الله تعالى إلى توحيش منظرك، وتقبيح مخبرك، وهل أكون إن قلت شيئًا إلا سارقًا من ربي، ومتكلفًا ما قد كفاني. فقال له بعض من معه من المصريين: على كل حال لا يقول هذا إلا أنه أفحمك، فقال النواسي:

بما أهجوك لا أدري ... لساني فيك لا يجري
إذا فكرت في هجو ... ك أبقيت على شعري

وحدثنا صاحب أخبار أبي نواس قصة دعابة أبي نواس ولهوه مع الفتيان الثلاثة، وهذا الشعر الذي أنشده في أصحابه هؤلاء، كل هذا يدلنا على أن أبا نواس اشترك مع الشعب المصري في لهوه ومجونه.

لأبي نواس أشعار كثيرة قيلت في مصر ولكنها لم تصل إلينا، فيقول جامع شعره: إن لأبي نواس بمصر قصائد لا يعرفها أهل العراق. ويروي ديك الجن -وقد دخل مصر بعد أن تركها أبو نواس- أنه وجد للنواسي أشعارًا كثيرة منها:

إذا ذكرت بغداد لي فكأنما ... تحرك في قلبي شباه سنان
وأوبة مشتاق بغير دراهم ... إلى أهله من أعظم الحدثان

وروى حمزة الأصفهاني أنه وجد رسالة في شعر أبي نواس وقد سقط منها الشعر الذي قاله بالشام ومصر؛ مع أن المصريين يروون للنواسي أشعارًا كثيرة لم تقع إلى أهل العراق، قال: وقدم علينا رجل من حمص حافظ لشعر أبي نواس، وزعم أن أباه كان قد لقي أبا نواس بحمص، فكتب عنه قصائد له أنشدها في مصر.

وفي كتاب أخبار الحسن بن هانئ لابن منظور نجد روايات كثيرة تدلنا على أن أبا نواس كان صديقًا لأحمد بن يوسف المعروف بابن الداية. ولكني أعتقد أن أحمد بن يوسف هذا لم يقابل أبا نواس؛ لأن ابن الداية توفي بمصر بعد وفاة أبي نواس بنحو قرن؛ أي بعد انتهاء الدولة الطولونية. فقد وَهِمَ إذن ابن منظور حين روى عن ابن الداية أنه كان صديقًا لأبي نواس، وربما كان أحمد بن يوسف كاتب العباسيين المعروف هو صاحب أبي نواس، فوهم ابن منظور وظنَّه ابن الداية لتشابه اسميهما.

خرج أبو نواس من مصر بعد أن مكث فيها سنة كما ذكر صاحب أخباره، وقد هجا مصر والمصريين بالأبيات التي ذكرتها سابقًا، ثم نراه يهجو النيل أيضًا:

أضمرت للنيل هجرانًا وتقلية ... إذ قيل لي إنما التمساح في النيل

وفي شعر أبي نواس في مصر، نجد أثر مصر واضحًا قويًّا؛ فمثلًا هو يذكر دائمًا قصة «موسى وفرعون» التي كانت في مصر، فنراه قد شبه شعره بعصا موسى تلقف ما يقول غيره من الشعراء.

فقد قيل: إن أبا نواس لما دخل لأول مرة عند الخصيب رأى جماعة من الشعراء أسن منه، فطلب من الخصيب أن ينشدوا قبله، فلما أنشدوا تبسم أبو نواس وقال: أنشدك أيها الأمير قصيدة هي بمنزلة عصا موسى تلقف ما يأفكون. ثم أنشده قصيدته الرائية، وفيها يقول:

وأطرق حيات البلاد لحية ... خصيبية التصميم حين تسور

ومدح الخصيب مرة أخرى بقوله:

حيـــة تـــصرع الرجـــال إذا مـــا صـــارعوا رأيـــه عـــلى الأذقـــان

وحذر المصريين من الاستمرار في الفتنة والثورة بقوله:

منحـتكم يـا أهـل مـصر نـصيحتي ألا فخـذوا مـن ناصـح بنـصيب
فـإن يـك بـاق إفـك فرعـون فـيكم فـإن عـصى موسـى بكـف خـصيب
رمـــاكم أمـــير المـــؤمنين بحيـــة أكـــول لحيـــات الـــبلاد شروب

ولا أكاد أعرف لأبي نواس شعرًا في هذا المعنى أنشده في غير مصر، مما يدل على أن هذا المعنى من أثر مصر في شعر أبي نواس، ثم ذكر النيل مرارًا وما به من التماسيح، وهو معنى مصري لا يتأتى لشاعر لم ير النيل، ولم يسمع عما به من التماسيح.

ووفد على مصر أيضًا الشاعر الهجاء دعبل بن الخزاعي طمعًا في نوال أحد أقاربه المطلب بن عبد الله الخزاعي والي مصر، ومدحه دعبل أولًا بقصيدته التي فيها:

أبعـــد مـــصر وبعـــد مطلـــب ترجـو الغنـى إن ذا مـن العجـب
إن كاثرونـــا جئنـــا بأسرتـــه أو واحـــدونا جئنـــا بمطلـــب

فولاه المطلب إقليم اسوان فمكث به أيامًا، ولعله لم يرض بما ناله فغضب، ولم ينج المطلب من هجائه إذ قال فيه:

أمطلـــب أنـــت مـــستعذب حميـــا الأفـــاعي ومـــستقبل
وعاديـــت قومًـــا فـــما ضرهـــم وشرفـــت قومًـــا فلـــم ينبلـــوا

فاضطر الوالي إلى أن يعزله، وكان المطلب يقول كلما قابل دعبلًا: ما تفكرت في قولك قط: «وإن كاثرونا جئنا بأسرته» إلا كنت أحب الناس إليَّ،

ولا تفكرت والله في قولك لي: «وعاديت قومًا» إلا كنت أبغض الناس إليَّ[١].

وحدث أنه عزل المطلب من مصر فلم يقبل أن يسلمها لمن خلفه فتحاربا، فانهزم المطلب واضطر إلى أن يفر إلى مكة، فقال دعبل في ذلك:

فكيف رأيت سيوف الحريش ... ووقعة مولى بني ضبة
أحجتك أسيافهم كارهًا ... وما لك في الحج من رغبة[٢]

ويريد بمولى بني ضبة السري بن الحكم الوالي الذي جاء بعد المطلب.

ولقد سعدت مصر سنة تسع وتسعين ومائة بوفود الإمام محمد بن إدريس الشافعي على مصر بصحبة عبد الله ابن الوالي العباس بن موسى، وقيل: إن الشافعي قدم مصر بعد أن أحس بالشر في بغداد، وأن الفتنة اشتدت في إظهار القول بخلق القرآن، فهرب من بغداد إلى مصر[٣]. ومهما يكن السبب الذي جاء من أجله الشافعي إلى مصر فإنه أقام بها ناشرًا لآرائه وعلمه، ملازمًا للاشتغال بجامع عمرو بزاوية الخشابية التي عرفت به[٤].

كان الشافعي شاعرًا، ويحدثنا السيوطي أن الشافعي اجتمع بعبد الله بن هشام صاحب السيرة وتناشدا من أشعار العرب أشياء كثيرة[٥]، ومع ذلك

(١) تراجع أخبار دعبل بمصر: ج١٨، ص٤٨ من كتاب الأغاني.
(٢) الولاة والقضاة للكندي: ص١٦١.
(٣) ثمرات الأوراق، مطبوع على هامش محاضرة الأدباء: ص٤٤.
(٤) الانتصار لواسطة عقد الأمصار لابن دقماق: ج٤، ص١٤٠.
(٥) حسن المحاضرة: ج١، ص٣٠٦.

فالشافعي كان يهتم بالفقه أكثر من اهتمامه بالشعر، ولأنه كان يقول:

ولولا الشعر بالعلماء يزري ... لكنت اليوم أشعر من لبيد(١)

كان مجيء هؤلاء الشعراء إلى مصر من العوامل التي ساعدت روح الشاعرية المصرية وأيقظت ما كمن منها، ومن الجائز أن بعض الشعراء المصريين كانوا يحاولون تقليد الشعراء الوافدين، وقد رأينا كيف كان يجتمع المصريون في المسجد الجامع لاستماع شعر أبي نواس وكيف اهتموا به، فهذا يدل على نمو الروح الأدبية في مصر وتطورها.

شعراء مصريون راحلون:

يمتاز هذا العصر أيضًا بظهور شعراء مصريين، أو ممن أخذوا بحظ من الثقافة في مصر، وقضوا فيها شطرًا من حياتهم الأولى، ثم غادروها إلى مقر الخلافة، حيث اتصلوا بالخليفة ورجاله، ومع أننا نستطيع أن نسمي هؤلاء الشعراء مصريين أو متمصرين -إن صح هذا التعبير- فإن شعرهم اصطبغ بصبغة البلاد التي حلوا بها، فلم يعد لهم أية صلة بمصر، ولذلك لا يعدهم الأدباء من المصريين؛ فشاعر كأبي تمام مهما قيل عن أصله ومولده، فلا شك أنه جاء مصر وهو صغير، وكان يسقي الماء في المسجد الجامع، وجالس الأدباء والعلماء في مصر، وحفظ في مصر الآلاف من الأراجيز والقصائد التي ساعدته على تهيئة ملكة الاختيار من شعر العرب، وجعلته يجمع منها حماسته، وفي مصر قال أبو تمام أول شعره، وما زال في مصر حتى شاع ذكره فبلغ

---

(١) راجع ما كتبناه آنفًا عن الشافعي.

الخليفة العباسي المعتصم خبره فاستقدمه وأحسن إليه[١]. ومكث أبو تمام بالعراق وخراسان حتى آخر أيام حياته.

لم يكن أبو تمام مصري المولد؛ ولكنه قضى شطرًا من حياته فيها كما قضى أكثر أيام حياته بعيدًا عنها، ومع ذلك فالمصريون يعتبرونه واحدًا منهم بل يغالون ويدعون أنه شاعرهم الأكبر، ويفخرون به حتى عده الكندي أحد فضائل مصر[٢]؛ وذلك لنبوغه وشهرته الواسعة وكثرة الشعر الذي أنشده، ولعله أول رجل تخرج في المدرسة المصرية تروي له هذا العدد الكبير من القصائد.

وحياة أبي تمام في مصر غامضة أشد الغموض إذ لم يصلنا عنه شيئًا كثيرًا في مصر، ولا نعرف عمن أخذ علومه، كما لا نعرف شيئًا عن اتصاله بأشراف المصريين وشعرائهم.

ولكن الذي نلاحظه على شعر أبي تمام في مصر هو عدم الإكثار من الزينة البديعية والتلاعب اللفظي، فإن هذه الأبيات القليلة التي وصلتنا من شعره الذي أنشده في مصر تدلنا على أن أبا تمام تبع شعراء مصر في ذلك الوقت في ألفاظهم ومعانيهم، وبالرغم من محاولته أحيانًا إلى التلاعب بالألفاظ، ومع ذلك فلم يبق لنا من شعره في مصر سوى هذه الأبيات القليلة التي لا نستطيع بها أن نحكم على شعره.

ولعل أول ما وصلنا من شعره بمصر قصيدته التي مدح بها عبد الله بن

---

(١) حسن المحاضرة للسيوطي: ج١، ص٣٢٢.

(٢) فضائل مصر للكندي، نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ٤٢٢ (تاريخ).

طاهر حين قدم مصر وهزم عبيد الله بن السري الثائر بمصر سنة إحدى وعشرين ومائتين، وفيها يقول:

لعمري لقد كان بمصر وقيعة ... أقامت على قصد الهدى كل مائل
على الخندق الأقصى وما كان حوله ... وما قد يليه من فضاء وساحل[1]

وأنشد أبو تمام شعرًا في الحروب التي كانت بمصر في هذا العهد من ذلك قصيدته في رثاء عمير بن الوليد الوالي الذي قتل يوم الثلاثاء لثلاث عشرة من ربيع الآخر عام أربعة ومائتين، وقد قتل في حرب بينه وبين أهل الحوف، وفي هذه القصيدة ظهر أثر حفظه للأشعار ولعادات الجاهلية من بكاء على الميت ولطم الخدود، وهي نفس عادات المصريين التي لم يشر إليها الشعراء المصريون؛ وإنما تشاهد كل يوم.

أعيدي النوح معولة أعيدي ... وزيدي في بكائك ثم زيدي
وقومي في نساء حاسرات ... خوامش للنحور وللخدود
هو الخطب الذي ابتدع الرزايا ... وقال لأعين الثقلين جودي
ألا رزئت خراسان فتاها ... غداة ثوى عمير بن الوليد
ألا إن رزئت بمسئول منيل ... ألا رزئت بمتلاف مفيد
ألا إن الندى والجود حلا ... بحيث حللت من حفر الصعيد
بنفسي أنت من ملك رمته ... منيته بسهم ردى سديد

واستمر في بكائه ونحيبه، ثم انتقل إلى ذكر الميت فوصفه فوصفه بالشجاعة في القتال والجود والسخاء.

ويا يوم الثلاثاء اعتمدنا ... بفقد فيك للسند العميد

---

(١) الولاة للكندي: ص١٨١.

فكم أسخنت فينا من عيون ... وكم أعثرت فينا من جدود[١]

ضاق أبو تمام ذرعًا بما هو فيه من فقر وإملاق، وكان يطمع في المال الكثير:

لقد طلعت في وجه مصر بوجهة ... بلا طالع سعد ولا طائر سهل
وساوس آمال ومذهب همة ... مخيمة بين المطية والرجل
نأيت فلا مال حويت ولم أقم ... فأمتع إذ فجعت بالمال والأهل
لئام طغام أو كرام بزعمهم ... سواسية ما أشبه الحول بالقبل[٢]

واضطر إلى أن يرحل من مصر غير آسف على فراقها؛ وإن حنَّ إليها بعد خروجه منها فذكر إخوانه بالفسطاط:

بالشام أهلي وبغداد الهوى وأنا ... بالرقمتين وبالفسطاط إخواني
وما أظن النوى ترضى بما صنعت ... حتى تشافه بي أقصى خراسان
خلفت بالأفق الغربي لي سكنًا ... قد كان عيشي به حلوًا بحلوان[٣]

ماني الموسوس:

وهناك شاعر آخر يختلف عن أبي تمام اختلافًا تامًّا، ذلك هو محمد بن القاسم ويكنى أبا الحسين، ويعرف بماني الموسوس؛ لأنه كان بعقله شيء من الجنون، هذا الرجل مصري المولد والنشأة، ولكنه خرج من مصر ولم يعرف متى خرج؛ إذ لم نعثر على شيء من أخباره غير أن أبا الفرج يحدثنا أن هذا

---

(١) الكندي: ص١٨٦، وديوان أبي تمام (طبعة محمد جمال ترخيص نظارة لمعارف نمرة ٤١٣)، والجزء الخامس من نهاية الأرب: ص٢٠٤.
(٢) ديوان أبي تمام: ص٤٢١.
(٣) شرحه: ص٣٢٣.

الشاعر «قدم مدينة السلام ولقيه جماعة من شيوخنا منهم أبو العباس بن عمار وأبو الحسن الأسدي وغيرهما[١]، وقد وصفه أحد الأدباء لمحمد بن عبد الله بن طاهر، وقد طلب أحدًا لمنادمته فقال له: قد خطر ببالي من ليس علينا بمنادمته ثقل، قد خلا من إبرام المجالسين، وبرئ من ثقل المؤانسين، خفيف الوطأة إذا أدنيته، سريع الوثبة إذا أمرته[٢].

لم يصلنا عن هذا الرجل سوى أخبار في جنونه، وأبيات قليلة مبعثرة في كتب الأدب تحملنا على القول بأن الشاعر كان كلفًا بالغزل ووصف مجالس الخمر واللهو، وبرع في هذه الفنون. وقد تأثر بالقدماء فوقف على الديار وبكى الأطلال. وكان يحفظ كثيرًا من الشعر ويرويه لأبي العباس بن عمار وهذا كتب عنه، قال ابن عمار[٣]: كان «مان» يألفني، وكان مليح الإنشاد حلوه، رقيق الشعر غزله، فكان ينشد في الشيء ثم يخالط فيقطعه، وكان يومًا جالسًا إلى جنبي، فأنشدني للعريان البصري قوله:

ما أنصفتك العيون لم تكف ... وقد رأيت الحبيب لم يقف

إلى آخر القصيدة فسألته أن يمليها عليَّ ففعل، ثم قال: أكتب، فعارضه أبو الحسن المصري -يعني مانا نفسه- فقال:

أقفر مغنى الديار بالنجف ... وحلت عما عهدت من لطف
طويت عنها الرضا مذممة ... لما انطوى غصن عيشها الأنف
حللت عن سكرة الصبابة من ... خوف إلهي بمعرك قذف

---

(١) الأغاني: ج٢٠، ص٨٤.
(٢) ذيل ابن خلكان: ج٢، ص٢٦٢.
(٣) الأغاني: ج٢٠، ص٨٤.

سـئمت ورد الـصبا فقـد يبـست منـي بنـات الخـدور والخـذف
سـلوت عـن نهـد نـسبن إلى حـسن قـوام واللحـظ في وطـف

وتوفي هذا الرجل سنة خمس وأربعين ومائتين.

لمحة عن أشهر الشعراء في ذلك العصر

١ - سعيد بن عفير:

هو سعيد بن كثير بن عفير بن مسلمة بن يزيد بن الأسود الأنصاري، ويكنى أبا عثمان، ولد بمصر سنة ست وأربعين ومائة، وأتم علومه الدينية بمصر، ثم رحل إلى بغداد فالمدينة حيث سمع الموطأ من الإمام مالك، وعاد إلى مصر فروى الحديث عن الليث بن سعد، وابن لهيعة، وصار أحد المحدثين الثقاة، وعنه أخذ البخاري والنسائي، وابن عبد الحكم وبكار بن قتيبة وغيرهم[١]، وأخذ بحظ وافر من العلوم الأدبية فدرس علم الأنساب والتاريخ وحفظ أيام العرب ومآثرهم ووقائعهم، والمناقب والمثالب، وكان في ذلك كله عالمًا كبيرًا، «وكان أديبًا فصيح اللسان حسن البيان، لا تمل مجالسته، ولا ينزف علمه، ويقال: إن مصر لم تخرج أجمع للعلوم منه»[٢]. وكان عبد الله بن طاهر يقول: «رأيت بمصر من عجائب الدنيا ثلاثة أشياء: النيل، والهرمين، وابن عفير»[٣].

---

(١) حسن المحاضرة في مواضع متفرقة، ومسالك الأبصار للعمري في باب المحدثين، (نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية).

(٢) تهذيب التهذيب: ج٤، ص٧٤.

(٣) البلدان للهمداني: ص٦٨.

وبجانب هذا كله كان الشاعر ذكيًّا سريع البديهة، حاضر الجواب؛ فقد حدثنا ابن زولاق أن المأمون لما قدم مصر سنة سبع وعشرة ومائتين جلس بقبة الهواء وبحضرته سعيد بن عفير، فقال المأمون: لعن الله فرعون حيث يقول: {أليس لي ملك مصر}، فلو رأى العراق وخصبها! فقال سعيد بن عفير: يا أمير المؤمنين، لا تقل هذا؛ فإن الله عزَّ وجلَّ قال: {ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون}، فما ظنك يا أمير المؤمنين بشيء دمره الله هذا بقيته!![١]

ويحدثنا السيوطي[٢] أن ابن عفير ولي قضاء مصر؛ ولكني لم أجد له ذكرًا بين القضاة في كتاب الكندي، ولا في رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر العسقلاني، ولكنه كان صديقًا للقضاة، وكانوا يرجعون إليه في كثير من المسائل الفقهية، ويثقون بشهادته، كما كان أحد الذين جعل إليهم التحكيم في قضية أهل الحرس التي مرَّ ذكرها، كما كان له رأي في اختيار قاضي مصر سنة اثنتي عشرة ومائتين، فقد قيل: إن عبد الله بن طاهر أمر بإحضار وجوه أهل مصر، فحضر عدد كبير بينهم سعيد بن عفير، فطلب إليهم ابن طاهر أن يختاروا قاضيًا من بينهم، فرشح بعضهم أصبغ بن فرج الفقيه العالم، فعارضه سعيد بن عفير وقال: ليس هذا الرجل كما وصفت، هذا رجل بذيء طويل اللسان، وسجع سعيد في وصفه. فقام أصبغ فقال: إن الأمير أمر أن يحضر في مجلسه الفقهاء وأهل العلم؛ لا الشعراء والكهنة[٣].

---

(١) فضائل مصر وأخبارها لابن زولاق، (نسخة خطية بمكتبة الأزهر رقم ٦٦٩).

(٢) حسن المحاضرة: ج١، ص١٦٨.

(٣) القضاة للكندي: ص٤٣٤.

من هذا الحديث نستطيع أن ندرك أن ابن عفير عُرف بين معاصريه بالشعر، وهجاه خصومه بذلك.

اتصل ابن عفير بالحوادث التي كانت في عهده، وأنشد الشعر في كل الاضطرابات التي كانت في مصر إذ ذاك، لا سيما ما كان منها بين سنة ثمان وستين ومائة وسنة تسع ومائتين، وقد ظهر في شعره روح العصبية العربية، وقد ذكرنا صورًا من شعره في ذلك.

وكان ابن عفير رجلًا كريم النفس لم يتملق رئيسًا، ولم يمدح أميرًا بقصد العطاء، فلم يتكسب بشعره كغيره من الشعراء؛ بل بالعكس من ذلك، نراه قد هجا الوالي المطلب الخزاعي ومدح معارضه هبيرة بن هاشم، ورثى أبا بشر الأنصاري الذي قتله الوالي[١].

لم يصلنا كل شعر هذا الرجل؛ وإنما هي مقطعات قصيرة صغيرة، لا نستطيع أن نعرف منها شاعريته، ولا أدري كيف قال الأستاذ «جوست»: «إن رثاء ابن عفير أرقى ما وصل إليه الشعر العربي في كتاب الكندي وأجمله»[٢]. ولكن الأستاذ «جوست» كغيره من المستشرقين لا يستطيعون أن يتذوقوا الشعر العربي مهما بلغ علمهم وثقافتهم في العلوم العربية؛ لأن ذوقهم الفني متأثر بالبيئة التي هم فيها، وخاضع لألوان الحياة التي يحيونها، وهي تختلف تمام الاختلاف عن البيئة والحياة العربية، والذوق لا يأتي بالعلم والدرس فقط، بل هو خاضع قبل كل شيء لما يحيط بالناقد من ضروب الحياة، فالمستشرق

(١) الكندي: ص١٥٦.

(٢) الكندي: ص٤٣.

يستطيع أن يحكم على شعر أنشد بلغته وقد يكون دقيقًا في حكمه، حكيمًا في نقده؛ ولكنه لا يستطيع أن يحكم على شعر عربي لبعده من بيئة هذا الشعر، ثم إن الأستاذ جوست قد حكم على الشاعر بهذه المقطعات القصيرة الصغيرة، وهي عندي لا تكفي لأن ترينا رقة الشعر وجماله، فالناقد لا يحكم على شاعر بقصيدة قالها، وإلا كنا كالقدماء الذين كانوا يفضلون شاعرًا على آخر لبيت قاله حتى سخر منهم مروان بن أبي حفصة، فقد قيل: إنه كان يروي شعرًا لزهير، وقال: زهير والله أشعر الناس. ثم أنشد للأعشى، وقال: الأعشى أشعر الناس. ثم أنشد لامرئ القيس وقال: امرؤ القيس أشعر الناس. ثم ضحك وقال: والناس والله أشعر الناس.

ومهما يكن من شيءٍ فإن ابن عفير لم يكن شاعرًا فحسب، فقد كان عالمًا محدثًا وفقيهًا، وأظن أن علم الرجل يفسد في كثير من الأحيان شعره إذا أخضع فنه لعلمه، ويخرجه من الشعر الطبيعي إلى الشعر القريب من النظم؛ لأن الشاعر العالم يخضع لعقله أكثر مما يخضع لعواطفه وشعوره، أما إذا استطاع أن يخضع علمه لفنه فهنا نستطيع أن نتذوق الشعر الفني القوي الذي لا يدانيه شعر آخر.

توفي سعيد بن عفير سنة ست وعشرين ومائتين[١].

المعلى الطائي:

لا نعرف عن هذا الشاعر إلا شيئًا قليلًا، ولم يتحدث عنه المؤرخون إلا بقدر لا يسمح لنا أن نعرف شخصيته، وكل ما نعرفه أنه كان معاصرًا لابن

(١) تاريخ الإسلام للذهبي، (نسخة خطية بدار الكتب المصرية).

عفير؛ ولكنه لم يبلغ من العلم ما بلغه صاحبه، ويخيل إليَّ أنه انقطع إلى الشعر والتكسب به، فقد مدح الولاة، واتصل بهم جميعًا، ودافع عن سياستهم، وهجا أعداءهم، فكان كغيره من الشعراء المادحين المتكسبين بشعرهم، فكان يمدح الوالي فإذا عزل الوالي يمدح من يأتي بعده، وقد رأيناه يمدح المطلب الخزاعي وابن السري، ثم يمدح عبد الله بن الطاهر الذي قتل ابن السري، ويحدثنا ابن سعيد في كتابه «المغرب في أخبار المغرب» أن المعلى ممن عاصر أبا نواس[١]، فمن الجائز أن يكون قد اتصل بأبي نواس لما وفد هذا على مصر، ولكنا لا نعلم تمامًا مدى هذا الاتصال؛ إذ لم يصلنا شيء من أخبارهما.

ويروي ابن سعيد هذه الأبيات الشهيرة للمعلى:

لولا بُنيَّات كزُغب القطا ... جمعن من بعض إلى بعض
لكان لي مضطرب واسع ... في الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادنا بيننا ... أكبادنا تمشي على الأرض
إن هبت الريح على بعضهم ... أشفقت العين من الغمض[٢]

ولكن أبا تمام في حماسته ينسبها لحطان بن المعلى[٣]، ورواها ابن عبد ربه منسوبة إلى المعلى[٤]، ولا أستطيع أن أجزم لمن هذه الأبيات، وإن كنت أميل إلى الأخذ بقول أبي تمام؛ لأنه كان معاصرًا للمعلى.

ويخيل إليَّ أن المعلى الطائي كان صاحب لهو ومجون. ولعل هذه الأبيات

---

(١) المغرب: ص١٠١.

(٢) شرحه.

(٣) ديوان الحماسة: ص١٠١، مطبعة السعادة سنة ١٩١٣م.

(٤) العقد الفريد: ج١، ص٣٦٤.

القليلة التي رواها أبو الفرج في الأغاني تؤيد أن المعلى كان يشرب الخمر كما كان يشربها كثير من الشعراء، فهو يذكر الخمر بقوله:

باكر صبوحك صبحة النيروز ... واشرب بكأس مترع وبكوز
ضحك الربيع إليك عن نواره ... آس ونسرين ومرماحوز[١]

الجمل الأكبر:

اسمه الحسين بن عبد السلام، ويُعد في طليعة شعراء هذا العصر؛ فقد تمتع بشهرة فائقة في دولة الشعر، واتصل بكثير من الأمراء والقضاة. ولد سنة سبعين ومائة، وتلقى العلم بمصر حتى إذا وفد الشافعي على مصر، صحبه الجمل وأخذ عنه. ولا نعلم شيئًا عن حياة هذا الرجل أيضًا، سوى أنه كان يتكسب بشعره، فمدح الولاة وغيرهم ابتغاء الأموال والهبات؛ فقد مدح المأمون بمصر، كما مدح عبد الله بن طاهر، وأكثر مدائحه التي وصلتنا أنشدها في مدح القاضي محمد بن أبي الليث، وظل الشاعر يعرض شعره على الأمراء حتى كان ابن المدبر فاتصل به، ثم اتصل بأحمد بن طولون، وخص به فاتخذه شاعره ونديمه، وعرف عن الجمل شره في الطعام، وقذارة الثوب ودناءة النفس[٢]. ولست أدري كيف نعته ابن يونس بهذه الصفات؛ في حين أننا نجد الجمل في إحدى قصائده:

إذا أظمأتك أكف اللئام ... كفتك القناعة شبعًا وريا
فكن رجلًا رجله في الثرى ... وهامة همته في الثريا
أبيا لنائل ذي ثروة ... تراه بما في يديه أبيا

(١) الأغاني: ج١٧، ص١٢٧.
(٢) معجم الأدباء لياقوت: ج٤، ص٧٦.

فـــإن إراقـــة مـــاء الحيـــا ة دون إراقـــة مـــاء المحيـــا[١]

ومن الجائز أن الجمل كان من الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون. وعُرف الجمل بشيءٍ من الظرف، وشهد له بذلك؛ فإن ابن سعيد في حديثه عن الجمل الأصغر قال: لقبه كلقب الأكبر وكذلك اسمه، وكان ينحو في الظرافة والتطايب منحاه[٢].

وكما عرف الجمل بالمدح فقد عرف بالهجاء؛ فقد روي أن الحسين بن عبد السلام بكر إلى سليمان بن وهب عامل الخراج بمصر، فلم يمكنه الحاجب من الدخول، وأدخل شاعرين آخرين -هما ابن شعوة وحمدويه- فلم يستطع الجمل صبرًا، وأرسل إلى سليمان أبياتًا منها:

ولعمري لئن حجبنا عن الشيـ ـخ فلا عن وجه هناك وجيه
لا ولا عن طعامه التافه النز ر الذي حوله لطام بنيه
بل حجبنا به عن الخسف والمسـ ـخ وذاك التبريق والتمويه
فجزى الله حاجبًا فظًّا كل خير عنا إذا يجزيه[٣]

وقد روينا له أبياتًا كثيرة عن الحوادث التي كانت بمصر في ذلك العصر.

وتوفي هذا الشاعر سنة ثمان وخمسين ومائتين من الهجرة.

---

(١) شرحه.

(٢) المغرب: ص١٠٢.

(٣) العقد الفريد: ج١، ص٤١.

الفصل الثالث
الشعر في عهد الطولونيين والإخشيديين

نستطيع أن نقدر لهذا العصر قيمته الأدبية إذا عرفنا أن الدولة العباسية اضمحل أمرها، وفقدت سلطانها، وانقسمت إلى دويلات صغيرة صار الأمر فيها إلى حكامها، ولم يبق للخليفة العباسي إلا الدعاء في الخطبة؛ بل كثيرًا ما كان الولاة يقطعون خطبة الخليفة العباسي، فصار أمير كل دولة مستقلًّا في شئون دويلته. وتنافس الأمراء فيما بينهم، فكان بينهم حروب، وأراد كل أمير أن يعرف فضله، وتعلى كلمته، فشجع الأمراء العلم، وحبب كل أمير إلى العلماء أن يفدوا عليه، واتخذ الأمراء من الشعراء وسيلة لنشر سلطانهم وازدياد نفوذهم فأغروا الشعراء بالأموال والهبات، وتنافس الشعراء في خدمة الأمراء، فكانت في الأقطار الإسلامية نهضة شعرية كبيرة، وابتدأ ظهور الشعر الإقليمي -إن صح أن نسميه كذلك- إذ ظهر في الشعر عناصر الأقاليم المختلفة، ومميزات الدول المتباينة، وأصبح في كل إقليم شعراء، وحفظ كل إقليم الشعر الذي أنشد فيه، فبعد أن كانت بغداد هي مركز الحياة الأدبية وقلبها النابض، صار الشعراء يقصدون الأقاليم المختلفة كما كانوا يقصدون بغداد من قبل، وأصبحت النهضة الأدبية متفرقة في الأقاليم، وكثرت الرحلات العلمية إلى مختلف الأمصار، وأكثر الأمراء عطاء ونوالًا هو أعظمهم حظًّا من وفود الشعراء والعلماء.

وكان الطولونيون بمصر أهل كرم وبذخ؛ يعطون الأموال الكثيرة، ويهبون الهدايا ويمدون السمط لكل طارق، واستقدموا الشعراء والأدباء،

وقربوهم ووصلوهم، فكونوا حولهم بلاطًا أدبيًّا أشبه ما يكون ببلاط خلفاء العباسيين، فأنتجب هذه الحياة في مصر أيام الطولونيين شعرًا كثيرًا، واجتمع في مصر عدد من شعراء قلَّ أن يجود الدهر بمثلهم حتى بالغ القاضي أبو عمرو عثمان النابلسي في عددهم؛ إذ نقل عنه المقريزي أنه قال في كتابه «حسن السيرة في اتخاذ الحصن بالجزيرة»: رأيت كتابًا قدر اثنتي عشرة كراسة مضمونة فهرست شعراء الميدان الذي لأحمد بن طولون. قال: فإذا كان أسماء الشعراء في اثنتي عشرة كراسة كم يكون شعرهم؟[١].

ومع ما في هذا القول من مبالغة، فإن بني طولون جمعوا حولهم عددًا كبيرًا من الشعراء فكثر بذلك المتكسبون، فلم يأت الأمير أمرًا إلا ظهر في شعر الشعراء، فمثلًا في الخلاف الذي كان بين أحمد بن طولون والموفق العباسي سنة تسع وستين ومائتين نجد شعراء ابن طولون قد دافعوا عنه ومدحوه؛ لأنه خلع الموفق عن ولاية العهد، وأمر بجهاده وحربه، من ذلك ما قاله قعدان بن عمرو:

طال الهدى بابن طولون الأمير كما ... يزهو به الدين عن دين وإسلام
قاد الجيوش من الفسطاط يقدمها ... منه على الهول ماض غير محجام
في جحفل للمنايا في مقانبه ... مكامن بين رايات وأعلام
يسمو به من بني سام غطارفة ... بيض وسود أسود من بني حام
لو أن روح بني كنداج معلقة[٢] ... بالمشترى لم يفته أو ببهرام

(١) خطط المقريزي: ج٢، ص١٢٤.

(٢) يقصد الشاعر هنا إسحاق بن كنداج الذي أسر الخليفة المعتمد أثناء فراره من الموفق في طريقه إلى ابن طولون.

حـاط الخلافـة والـدنيا خليفتنـا ... بـصارم مـن سـيوف الله صمـصام
يـا أيهـا النـاس هبـوا نـاصرين لـه ... مـع الأمـير بـدهم الخيـل في الـلام
ليـست صـلاة مـصليكم بجـائزة ... ولا الـصيام بمقبـول لـصيام
حتـى يـرى الـسيد الميمـون ذبكـم ... عـن الإمـام بأطراف القنا الدامي[1]

وكقول الشاعر منصف بن خليفة الهذلي:

يـا غـرة الـدنيا الـذي أفعالـه ... غـرر بهـا كـل الـورى تتعلـق
أنـت الأمـير عـلى الـشام وثغرهـا ... والـرقتين ومـا حـواه المـشرق
وإليـك مـصر وبرقـة وحجازهـا ... كـل إليـك فـؤاده متـشوق
هتـك الخلافـة «صـاعد»[2] وخليلـه ... «إسـحاق» لعبًـا والحسود الأخـرق
أسـيافنا بـيض المنـون فليتهـا ... بنجيـع مـن خـذل الإمـام تخلـق
تمـسي وتـصبح ضـاربًا مـن دونـه ... بمهنـد مـن الحتـوف تفـرق
يتلـوك «سـعد» والمقـدم «تيتـك» ... «واللاذقـي» وذو الحفيظـة يلحـق[3]

وفي أيام خمارويه بن أحمد بن طولون خرج خمارويه لحرب إسحاق بن كنداج سنة ثلاث وسبعين ومائتين، فهزم ابن كنداج وتبعه خمارويه حتى بلغ «سر من رأى» فمدحه القاسم بن يحيى المريمي:

أتانـا أبـو الجـيش الأمـير بيمنـه ... فـشرد عنـا الجـور وافتقـر العـسر
فـإن يـك أرض الـرقتين بـه اكتـست ... ضـياء وإشراقًـا لقـد أظلمـت مـصر
فـسلئل بـه إسـحاق إذ سـار نحـوه ... بجيش كعرض النيل يقدمه النصر

---

(١) الكندي: ص٢٢٧.

(٢) هو صاعد بن مخلد الذي ساعد ابن كنداج في أسر المعتمد.

(٣) الكندي: ص٢٢٨، وقد وردت الأبيات الثلاثة الأولى في النجوم الزاهرة: ج٣، ص٢٠ غير منسوبة لا حد في رثاء ابن طولون، وهذا خطأ كما يفهم من الشعر.

فـأبلس إذ قيـل الأمـير ببـالس ... وأضـحى ضـعيف العقـد إذ عقـد
ولـما رأى الجيش ابـن كنداج مقبلًا ... أرتـه المنايـا الحمـر أعلامـه الحمـر
فـولى شـديدًا ذا ارتيـاع كأنـه ... بكـل بـلاد طـائر مـا لـه وكـر
لـئن سر إسـحاق النجـاة بنفـسه ... لقـد سـاءه في جمعـه القتـل والأسر
فـلا يغـبطن بـالعيش مـن بعـد هـذه ... فقـد كـسرته كـسرة مـا لهـا جـبر[1]

وقد خص القاسم بن يحيى بن معاوية المريمي شعره في مدح خمارويه، وقال فيه كل مدائحه حتى سُئل مرة أن يرحل عن مصر، فقال:

وكيـف رحـيلي عـن بـلاد غـدا بهـا ... أبـو الجـيش والنيـل الـذي مـلأ

وما كادت تدول دولة الطولونيين، وتعود مصر مرة أخرى إلى حكم العباسيين سنة اثنتين وتسعين ومائتين حتى رأينا الشعراء يرثون الطولونيين، ويأسفون على أيامهم الزاهرة؛ بل نجد شاعرًا هو سعيد القاص ينظم تاريخهم في قصيدة أرى أن أثبتها هنا لما فيها من إشادة بأفعال الطولونيين ومنشآتهم.

جـرى دمعُـهُ مـا بـين سـحر إلى نحـر ... ولم يجـر حتـى أسـلمته يـد الـصبر
وبـات وقيـدًا للـذي خـامر الحـشا ... يـئن كـما أن الأسـير مـن الأسر
وهل يستطيع الصبر من كان ذا أسى ... يبيـت عـلى جمـر ويـضحى عـلى جمـر
تتـابع أحـداث يُـضيعن صـبره ... وغـدر مـن الأيـام والـدهر ذو غـدر
أصاب على رغـم الأنوف وجدعها ... ذوي الـدين والـدنيا بقاصـمة الظهـر
طـوى زينـة الـدنيا ومـصباح أهلهـا ... بفقـد بنـي طولـون والأنجـم الزهـر
فبـادوا وأضـحوا بعـد عـز ومنعـة ... أحاديث لا تخفى على كل ذي حِجْر
وكـان أبـو العبـاس أحمـد ماجـدًا ... جميـل المحيـا لا يبيـت عـلى وتـر

(١) الكندي: ص ٢٣٦، ٢٣٧.
(٢) الجزء الثالث من كتاب المغرب، (نسخة خطية بدار الكتب المصرية).

كأن ليالي الدهر كانت لحسنها ... وإشراقها في عصره ليلة القدر
يدل على فضل ابن طولون همة ... محلقة بين السماكين والغفر
فإن كنت تبغي شاهدًا ذا عدالة ... يخبر عنه بالجلي من الأمر
فبالجبل الغربي خطة يشكر ... له مسجد يغني عن المنطق الهذر
يدل ذوي الألباب أن بناءه ... وبانيه لا بالضنين ولا الغمر
بناه بآجر وساج وعرعر ... وبالمرمر المسنون والجص والصخر
بعيد مدى الأقطار سام بناؤه ... وثيق المباني من عقود ومن جدر
فسيح الرحاب يحسر الطرف دونه ... رقيق النسيم طيب العرف والنشر
وتنور فرعون الذي فوق قلة ... على شاهق عال على جبل وعر
بنى مسجدًا فيه يروق بناؤه ... ويهدى به في الليل إن ضل من يسري
تخال سنا قنديله وضياءه ... سهيلًا إذا ما لاح في الليل للسفر
وعين معين الشرب عين زكية ... وغير أجاج للرواة وللطهر
كأن وفود النيل في جنباتها ... تروح وتغدو بين مد إلى جزر
فأرقاها[1] مستنبطًا لمعينها ... من الأرض من بطن عميق إلى الظهر
بناء لو أن الجن جاءت بمثله ... لقيل لقد جاء بمستفظع نكر
يمر على أرض المعافر كلها ... وشعبان والأحمور والحي من بشر
قبائل لا نوء السحاب يمدها ... ولا النيل يرويها ولا جدول يجري
ولا تنس مارستانه واتساعه ... وتوسعة الأرزاق للحول والشهر
وما فيه من قوامه وكفاته ... ورفقهم بالمعتفين ذوي الفقر
فللميت المقبور حسن جهازه ... وللحي رفق في علاج وفي جبر
وإن جئت رأس الجسر فانظر تأملًا ... إلى الحصن أو فاعبر إليه على الجسر
ترى أثرًا لم يبق من يستطيعه ... من الناس في بدو البلاد ولا حضر

(١) في القاموس: أرقأ: أصلح وفسد، من الأضداد.

مـــآثر لا تـــبلى وإن بـــاد ربهـــا ... ومجـــد يـــؤدي وارثيـــه إلى الفخـــر
لقـد ضـمن القـبر المقـدر ذرعـه ... أجـل إذا مـا قـيس مـن قبتي حجـر
وقـام أبـو الجـيش ابنـه بعـد موتـه ... كما قام ليث الغاب في الأسل السمر
أتتـــه المنايـــا وهـــو في أمـــن داره ... فأصبح مسلوبًا من النهي والأمر
كـذاك الليـالي مـن أعارتـه بهجـة ... فيا لك من ناب حديد ومن ظفر
وورث هـارون ابنـه تـاج ماجـد ... كذلك أبو الأشبال ذو الناب والهصر
وقـد كـان جـيش قبلـه في محلـه ... ولكن جيشًا كان مستنقص العمر
فقـام بـأمر الملـك هـارون مـدة ... على كظظ من ضيق باع ومن حصر
ومـا زال حتى زال والـدهر كاشـح ... عقاربـه مـن كـل ناحيـة تـسري
تـــذكرتهم لمـــا مـــضوا فتتـــابعوا ... كما ارفض سلك من جمان ومن شذر
فمن يبك شيئًا ضاع من بعد أهله ... لفقـدهم فليبـك حزنًـا عـلى مـصر
لبيك بني طولون إذ بان عصرهم ... فبورك من دهر وبورك من عصر[1]

ولهذا الشاعر أيضًا عدة قصائد في مدح الطولونيين يصف فيها جميعًا ازدهار الحياة في مصر، وقوة البلاد في عصرهم وما كانت ترتع فيه من نعيم ورخاء.

على أنَّ هؤلاء الشعراء الذين أكثروا من مدح الطولونيين وخلعوا عليهم هذه الصفات والألقاب الشعرية التي نراها دائمًا في مدح شعراء العرب، لم يلبثوا أن تحولوا إلى مدح الأمراء والولاة العباسيين الذي أبادوا ملك الطولونيين، وأخرجوا قوادهم ومواليهم، فخلت منهم الديار المصرية وأحلوا بالطولونيين التطريد والتشريد، ففي حين نرى شاعرًا كإسماعيل بن أبي هاشم قد مدح الطولونيين بعدة قصائد، كقوله بعد أن دالت دولتهم:

---

(١) خطط المقريزي: ج٢، ص١١٩.

قـف وقفـة بفنـاء بـاب الـساج ... والقـصر ذي الـشرفات والأبـراج
وربـوع قـوم أزعجـوا عـن دارهـم ... بعـد الإقامـة أيـما إزعـاج
كـانوا مـصابيحًا إذا ظلـم الـدجى ... يـسري بهـا الـسارون في الإدلاج
وكـأن وجـوههم إذا أبـصرتها ... مـن فـضة مـصبوغة أو عـاج
كـانوا ليوثًـا لا يـرام حمـاهم ... في كـل ملحمـة وكـل هيـاج
فـانظر إلى آثـارهم تلقـى لهـم ... علـمًا بكـل ثنيـة وفجـاج
وعلـيهم مـا عـشت لا أدع البكـا ... مـع كـل ذي نظـر وطـرف سـاج[1]

هذا القول يظهر فيه الوفاء للطولونيين والإخلاص لهم، ونراه قد استمر على وفائه وإخلاصه، يدلنا على ذلك شعره في ثورة محمد بن علي الخليجي[2]، وكان أحد جند الطولونيين الذين أسرهم محمد بن سليمان القائد، وسار بهم إلى الشام، وفي دمشق حدثت نفس ابن الخليجي أن يعود إلى مصر، ويعيد الطولونيين إلى ملكهم، وكاشف بذلك بعض أصفيائه فأجمعوا كلمتهم على ذلك، وساروا معه حتى استولوا على الرملة باسم إبراهيم بن خمارويه، واجتمع إليه خلق كثير سار بهم إلى مصر وهزم جيوش عيسى النوشري الوالي حتى استطاع ابن الخليجي أن يستولي على الفسطاط في ذي القعدة سنة اثنتين وتسعين ومائتين، وأرسل الخليفة المكتفي بالله جيشًا لقتاله وعليهم أبو الأغر خليفة بن المبارك وغيره، فقاتلهم ابن الخليجي بمنية الأصبغ وهزمهم

(١) الخطط: ج٢، ص١١٩، والكندي: ص ١٣٢-٢٥٣.

(٢) سمي هذا الرجل في الكندي ص٢٥٩ بابن الخليج، وفي المقريزي: ج٢، ص١٢٤، ولكن صاحب النجوم الزاهرة: ج٣، ص١٩٢ سماه الخلنجي، وفي مروج الذهب: ج٤، ص٢١٧ سمي بالخليجي، وكذلك في تاريخ الطبري: ج١١، ص٣٩٣، والذي يصح عندي أنه ابن الخليج أو الخليجي؛ لقول الشاعر في مدحه:

وكان أبوك خليج العفاة ... وبحر الثغور التي عالها

الأصبغ وهزمهم سنة ثلاث وتسعين ومائتين[١]، فمدحه الشعراء منهم إسماعيل بن هاشم بقوله:

أميرنا يابن البهاليل الغرر ... شفيت من عدونا أبي الأغر
صدورنا وقيت من كل حذر ... إذ جاء في الشوك إلينا والشجر
في جحفل كموج بحر قد زخر ... يتبعه أهل البوادي والحضر
صبرت إذ لاقيته وما صبر ... فمر في أسرع من لمح البصر
يقطر منه بوله قطر المطر ... أحدث فوق سرجه وما شعر
شفيتنا من تركهم مع الخزر ... ثم عفا أميرنا لما قدر[٢]

فهو هنا قد حفظ وفاء الطولونيين حتى أنه مدح ابن الخليجي الذي عمل على إعادة دولة الطولونيين؛ ولكن من الجائز أن يكون الشاعر قد مدحه خوفًا منه، ومع ذلك فقد مدح أحد صنائع الطولونيين، وهو بخلاف الشاعر سعيد القاص، فقد رأينا قصيدته التي تحدث فيها عن الطولونيين، ومع ذلك فقد مدح القائد بدر الحمامي الذي هزم ابن الخليجي سنة ثلاث وتسعين ومائتين بقوله:

حالت معارفهم إلى إنكار ... وغدا الخميس لهم بيوم بوار
وتقاطعوا وتدابروا وتنافروا ... وتلاعنوا فيها كأهل النار
وأتوك بين معذر في عذره ... خجل وبين مصرح الإقرار
وتزعزعت تلك الرماح فصورت ... ركن المقطم في شفير هار
طلعت نجوم في الرماح بروحها ... فسقطن إذ طلعت نجوم قدار
لما انجلى ذلك الغبار رأيتهم ... صرعى وقد لبسوا بريم غبار

(١) النجوم الزاهرة: ج٣، ص١٥١ وما بعدها.
(٢) الكندي: ص٢٥٩.

فاسعد بنصر الله والفتح الذي عظمت به النعمى على الأبرار[1]

فهذا شاعر متقلب في مدحه يمدح ذا السلطان والإمرة دون نظر إلى مبدأ أو عقيدة مثله في ذلك مثل الشاعر أحمد بن محمد الحبيشي الذي مدح القائد محمد بن سليمان الكاتب لما دخل مصر وانتزعها من أيدي الطولونيين، فقد أنشد هذا الشاعر قصيدة بائية تكاد تكون هي نفسها قصيدة أبي تمام التي مطلعها:

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

فالشاعر المصري في قصيدته أخذ معاني قصيدة أبي تمام وأودعها شعره؛ بل أخذ ألفاظ أبي تمام وصنع منها قصيدته، وفيها يقول:

الحمد الله إقرارًا بما وهبا قد لم بالأمن شعب الحق فانشعبا
الله أصدق هذا الفتح لا كذب فسوء عاقبة المثوى لمن كذبا
فتح به فتح الدنيا محمدها وفرج الظلم والإظلام والكربا
لا ريب رب هياج يقتضي دعة وفي القصاص حياة تذهب الريبا
رمى الإمام به عذراء غادرة فافتض عذرتها بالسيف واقتضبا
محمد بن سليمان أعزهم نفسًا وأكرمهم في الذهبين أبا
سرى بأسد الشرى لو لم يروا بشرًا أضحى عرينهم الخطى لا القضبا
حم القضاء على اليحموم حين أتوا مثل الدبي يمتحون الدبة الدأبا
إيها علوت على الأيام مرتبة أبا علي ترى من دونها الرتبا
لما أطال بنو طولون خطبتهم من الخطوب وعافت منهم الخطبا
هارت بهارون من ذكراك بقعته وشيب الرعب شيبانًا وقد رعبا

(١) الكندي: ص٢٦١.

وكم ترى لهم من جنة أنف ... ومن نعيم جنى من غدرهم عطبا
فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم ... كأنها من زمان غابر ذهبا[1]

ولأترك مقارنة هذا القصيدة المصرية بقصيدة أبي تمام المعروفة التي أنشدها في مدح المعتصم ويذكر فيها فتح عمورية؛ إذ ليس هنا مجال البحث عن ذلك، وأكتفي بالإشارة إليها.

وأعود إلى الشاعر أحمد بن محمد الحبيشي فأقول: إنه كغيره من الشعراء الذين يمدحون أصحاب السلطان ويتغيرون بتغير الولاة والأمراء، فهو في هذه القصيدة مدح عدو الطولونيين، فلما استولى ابن الخليجي على مصر وأراد أن يُعيد ملك الطولونيين نراه قد مدح الأمير لانتصاره على جيوش العباسيين بقوله:

غضبت لمصر وما نالها ... وشردت بالحوف مَن غالها
تلافيتها بعد إدبارها ... وأقبلت تطلب إقبالها
وكادت تئوه شوقًا إليك ... وتظهر بالشوق بلبالها
وما شوقها كان من طبعها ... ولكن ربك أوحى لها
لقد فرج الله كرب النفوس ... وبلغها فيك آمالها
ولما رأيناك في مصرنا ... منحنا الإمارة إجلالها
وما زلت تطلبها همة ... وتركب بالسيف أهوالها
وتعلم نفسك أن الأمور ... إما عليها وإما لها
تمنوا لقاك فلما رأوك ... رأوا للمنية إظلالها
ومروا يطيعون في كل شيء ... رأوه المنايا وإنزالها
وكان أبوك خليج العفاة ... وبحر الثغور التي عالها

(١) خطط المقريزي: ج٢، ص١١٨، والكندي: ص٢٤٨.

بـــه كانـــت الـــروم في أمنهـــا تُفـــزِّع للـــذنب أطفالهـــا[١]

نستطيع من ذلك كله أن ندرك أن عددًا كبيرًا من الشعراء ظهروا في هذا العصر، وأنشدوا شعرًا في مدح الأمراء، وأن كثيرًا منهم تقلب في المدح بتقلب الأحوال السياسية في البلد؛ إذ لا همَّ لأمثال هؤلاء الشعراء إلا إرضاء الأمير مهما كان هذا الأمير.

على أنه وجد بعض الشعراء الذين اتخذوا لأنفسهم رأيًا خاصًّا، ومذهبًا دافعوا عنه غير آبهين بأمير أو سلطان، ففي الوقت الذي كان فيه أحمد بن طولون في منتهى قوته واتساع سلطانه، وفي الوقت الذي تقرب فيه الشعراء إليه وحاولوا إرضاءه وطمعوا في نواله وتحدثوا عن نعمه وأياديه على البلاد، في هذا الوقت نجد شاعرًا من شعراء الطولونيين هو محمد بن داؤد قد أكثر من هجاء أحمد بن طولون، فلم يأت الأمير عملًا إلا هجاه هذا الشاعر حتى إذا أقام الأمير المنشأت النافعة نجد الشاعر قد اتخذ هذه المنشأت وسيلة لهجاء الأمير دون حوف. فمثلًا قد بنى الأمير المارستان سنة تسع وخمسين ومائتين فهجاه الشاعر محمد بن داؤد بقوله:

ألا أيهـــا الأغفـــال إيهـــا تـــأملوا وهـــل يـــوقظ الأذهـــان غـــير التأمـــل
ألـــم تعلمـــوا أن ابـــن طولـــون نقمـــة تـــسير مـــن ســـفل إلـــيكم ومـــن عـــل
ولـــولا جنايـــات الـــذنوب لمـــا علـــت عليكم يد العلج السخيف المجهل
فيـــا ليـــت مارســـتانه نـــيط باســـته ومـــا فيـــه مـــن علـــج عتـــل مقلـــل
فكـــم ضـــجة للناس من خلف ستره تـــضج إلى قلـــب عـــن الله مغفـــل[٢]

(١) الكندي: ص١٦٠.
(٢) شرحه.

ولما بنى أحمد بن طولون المراكب الحربية واتخذ الحصن في الجزيرة هجاه الشاعر ابن داؤد بقوله:

لما ثوى ابن بغا بالرقتين ملا ... ساقيه زرقًا إلى الكعبين والعقب
بنى الجزيرة حصنًا يستجن به ... بالعسف والضرب، والصناع في
وراقب الجيزة القصوى فخندقها ... وكاد يصعق من خوف ومن رعب
له مراكب فوق النيل راكدة ... فما سوى القار للنظار والخشب
يرى عليها لباس الذل مذ بنيت ... بالشط ممنوعة من عزة الطلب
فما بناها لغزو الروم محتسبًا ... لكن بناها غداة الروع للهرب[1]

وظل هذا الشاعر يهجو أحمد بن طولون حتى توفي الأمير فلم يقلع عن هجائه؛ بل رماه بأشد أنواع الهجاء ولم يتورع عن بسط لسانه في الأمير حتى بعد وفاته، من ذلك قوله:

مضى غير مفقود وما كان عمره ... سوى نقمة للخلق شنعاء صيلم
لقد زيد في اليحموم بالرجس لعنة ... ولم يسق بالمرجوس ترب المقطم
ولم تبكه الأرضون لكن تبسمت ... سرورًا ولولا موته لم تبسم
يبشره إبليس عند قدومه ... عليه بأحمى بقعة في جهنم
لقد طهرت الأرض من سوء فعله ... ومن وجهه ذاك الكريه المورم
فلا سقيت أجداثه صوب مزنة ... وأنى وفيها شر أولاد آدم[2]

ولا أدري سبب هذا الهجاء الذي لا أكاد أعرف مثيلًا له في الهجاء العربي؛ فإن الشعراء كانوا أمام حرمة الموت يتورعون عن هجاء الموتى؛

(١) خطط المقريزي: ج٣، ص٢٩٣، والكندي: ص٢١٨.
(٢) الكندي: ص٢٣٢.

ولكن هذا الشاعر المصري كان موتورًا -كما يخيل إليَّ- فلم يكفه أن يظهر فرحه لموت الأمير؛ بل هجاه بهذه الأبيات وبغيرها مما يدل على أن المصريين في هذا العصر اتخذوا الشعر وسيلة لهجاء الموتى، وهو الأمر الذي لم نره في شعر المصريين قبل ذلك العصر.

وفي هذا العصر أيضًا ظهر في الشعر المصري فن لم نجد له مثيلًا في العصور السابقة؛ بل لا نجد له مثيلًا في الشعر العربي إلا في شعر الأندلسيين، فمؤرخو الأدب العربي قالوا: إنَّ الأندلسيين امتازوا برثاء الممالك والبلدان، كلما اختطف عدوهم منها شيئًا، وأشاد مؤرخو الأدب بقصيدة ابن عبدون الأندلسي التي رثى بها دولة بني الأفطس والتي مطلعها:

الدهر يفجع بعد العين بالأثر ... فما البكاء على الأشباح والصور

ومن يقرأ الشعر المصري في هذا العصر يجد أن هذا الفن كان معروفًا في مصر، وأن شعراء مصر أكثروا في الحديث عنه، فبعد أن دالت دولة الطولونيين، وعاد الأمر إلى الخليفة العباسي ودمرت القطائع، وخرب الميدان قام شعراء مصر يرثون أيام الطولونيين وما بنوه، ويعددون مفاخرهم، ويصفون دورهم، ويأسفون على ما لحق هذه المنشآت الجليلة من التدمير والخراب، والترحم على الأيام الجميلة التي قضوها بين هذه المباني مثل قول الشاعر محمد بن طشويه:

من لم ير الهدم للميدان لم يره ... تبارك الله ما أعلاه وأقدره
لو أن عين الذي أنشاه تبصره ... والحادثات تعاديه لأكبره
كانت عيون الورى تغشى لهيبته ... إذا أضاف إليه الملك عسكره
أين الملوك التي كانت تحل به ... وأين من كان بالإتقان دبره

وأين من كان يحميه ويحرسه ... من كل ليث يهاب الليث منظره
صاح الزمان بمن فيه ففرقهم ... وحط ريب البلى فيه فدعثره
وأخلق الدهر منه حسن جدته ... مثل الكتاب محا العصران أسطره
دكت مناظره واجتث جوْسَقه ... كأنما الخسف فاجاه فدمره
أو هب إعصار نار في جوانبه ... فعاد معروفه للعين منكره
كم كان يأوي إليه في مقاصره ... أحوى أغن غضيض الطرف أحوره
كم كان فيه لهم من مشرب غدق ... فعب طرف الردى فيه فكدره
أين ابن طولون بانيه وساكنه ... أماته الملك الأعلى فأقبره
ما أوضح الأمر لو صحت لنا فكر ... طوبى لمن خصه رشد فذكره[1]

وقال إسماعيل بن أبي هاشم:

يا منزلًا لبني طولون قد دثرا ... سقاك صوب الغوادي القطر والمطرا
يا منزلًا صرت أجفوه وأهجره ... وكان يعدل عندي السمع والبصرا
بالله عندك علم من أحبتنا ... أم هل سمعت لهم من بعدنا خبرا[2]

وكقصيدة سعيد القاص التي مر ذكرها؛ فمن ذلك نستطيع أن ندرك أن الشعراء المصريين أخذوا بنصيب وافر من هذا الفن الذي لم يكثر فيه غيرهم من شعراء الشرق، كما يدلنا ذلك أيضًا على تطور الشعر في مصر، فبعد أن كان الشعر المصري في العصور السابقة يكاد يكون صورة من الشعر العربي في الأقطار الأخرى من حيث المعاني والخيال؛ مع تغير المعاني والخيال بالحياة وبعض الصور المصرية، وبعد أن كان الشعر شعر مناسبات -إن صح هذا التعبير- أصبح الشعر في عصر الطولونيين والإخشيديين يأخذ مظهرًا آخرًا لم

(١) خطط المقريزي: ج٢، ص١٢١، والكندي: ص٢٦٣.
(٢) شرحه: ج٢، ص١٢٢، والكندي: ص٢٦٦.

نعرفه من قبل. وقد رأينا الشعراء في العصر السابق يأخذون بحظ وافر من الثقافات المختلفة، وبعضهم صاحبوا الأئمة وأخذوا عنهم، تطور الشعراء في العصر الطولونيين فقد ترك أكثرهم العلم، واهتموا بالفن الشعري والتكسب به، حقيقة وجد بعض الشعراء في ذلك العصر أتقنوا كثيرًا من فنون العلم، فكان منهم الكتاب أمثال جعفر بن محمد بن جدار وصالح بن رشدين وغيرهما، وكان منهم المؤلفون أمثال ابن الداية الذي تحدثنا عنه سابقًا، والحسن بن علي الأسدي صاحب كتاب الأنيس الذي وصفه بقوله:

فيه ما يشتهي الأديب من العـ ـلم وفيه جلاء هم النفوس
فيه ما شئت من بدور معان ضاحكات إلى وجوه شموس[1]

كما كان بين شعراء ذلك العصر بعض الفقهاء أمثال منصور الفقيه والحداد القاضي، ومنهم المتكلمون كابن الجبي الشهير بسيبويه المصري، وبالغ بعضهم في إطالة القصائد كالذي يروي عن قصيدة محمد بن أحمد بن الربيع بن سليمان الأسواني التي لا يعلم في الوجود أطول منها، سئل قبل موته بسنتين كم بلغت قصيدتك إلى الآن قال: ثلاثين ومائة ألف بيت، وقد ضمن قصيدته هذه كثيرًا من الأخبار وقصص الأنبياء وبعض العلوم والآراء الفقهية وعلوم الطب[2]. وبالرغم من وجود هؤلاء الشعراء العلماء كان أكثر شعراء ذلك العصر يهتمون بالشعر دون غيره.

وفي الشعر المصري في هذا العصر كثير من الحكم والأبيات التي جرت

(١) يتيمة الدهر للثعالبي: ج١، ص٣٢٧.

(٢) فوات الوفيات للصفدي: ج١، ص٤٤٤، نسخة خطية بالمكتبة التيمورية.

مجرى الأمثال، وكثير من أشعار الزهد كالتي نراها في أشعار منصور الفقيه وابن طباطبا وغيرهما.

أثر اللهو في الشعر:

والظاهرة التي يجب أن نلاحظها على شعراء هذا العصر هي انغماس الشعراء في تيار اللهو والمجون؛ فقد غمرهم الترف، فأخذوا بحظ وافر منه، وكثر المجون في هذا العصر، وازداد بازدياد ثروة البلاد، فرغب الشعب المصري في هذه الحياة الماجنة، والمصري بطبيعته ميال إلى الفكاهة والدعابة، وإذا ذكر في العراق جماعة أبي نواس، ففي مصر جماعة محمد بن عاصم وسعيد بن فاخر قاضي البقر شاعر الإخشيد، وأبي هريرة بن أبي العصام وغيرهم.

وقد ساعد على وجود هذه الحياة بمصر بذخ الأمراء وإسرافهم، وأخذهم بحياة النعيم وشرب الخمر والإسراف في شربها وسماع الغناء، واللهو بالجواري والقيان كما كان يفعل خلفاء بني العباس.

فأحمد بن طولون مع تمسكه بأهداب الدين، وكثرة علمه، وما كان يؤثر عنه أنه كان يبكر كل يوم فيخرج لسماع قراءة الأئمة في المحراب[1]، كان مع ذلك كله يشرب الخمر ويسمع الغناء، ويقرب المغنين.

حدثنا ابن الداية قال: قال أحمد بن أيمن: كنا عند أحمد بن طولون، فقال لكنيز المغني: أشتهي صوتًا ما سمعته منذ خرجت من «سر من رأى». فقال: وما هو يا سيدي؟ فقال هذا البيت:

---

(١) الأذكياء لابن الجوزي: ص٤٩، (طبعة سنة ١٢٧٧هـ).

ألا شـــفيتم غلـــيلًا لا أفارقـــه نفسي فداؤك من ذي غلة صادي

فحملني النبيذ وما استهواني من تقريب أحمد بن طولون وإيناسه على أن قلت: أنا أحسنه!! ففرح ابن طولون، واندفعت أغنيه إياه -وكان أحمد بن أيمن ذا جثة عظيمة، وعقيرة جهيرة حسنة الإيقاع- فطرب طربًا شديدًا، ثم صفق بيديه، فسبقته إلى سخف الطرب، وقمت فرقصت على إيقاع اللحن فزاد سروره[١].

وعُرف خمارويه بن أحمد بن طولون باللهو والمجون، والبذخ في الحياة والإسراف في الشراب حتى حدثنا التنوخي أن خمارويه كان إذا قعد للشرب يشرب أربعين رطلًا من نبيذ مصر المعروف بالشبروي، ومن يشرب منه رطلًا يستطيع أن يشرب من غيره أرطالًا[٢]. وهذا لا شك إسراف من التنوخي أيضًا، ولكنه يدلنا على أن خمارويه كان كلفًا بالشراب. ووجد بعض البلدان عرفت بصنع الخمور كمدينة أبوان «بالقرب من دمياط» كان أهلها نصارى ويعمل فيها الشراب الفائق فينسب إليها فيقال: بوني[٣].

ولا ننسى الأديرة الكثيرة التي كان ينزح إليها الشعراء وغيرهم من أصحاب اللهو والمجون، فكما كان العراقيون يذهبون إلى دير عبدوس وغيره من الأديرة. كذلك ذهب المصريون إلى دير القصير ودير نهيا ودير مارحنا وغيرها، وكان خمارويه يذهب إلى دير القصير؛ إذ بنى لنفسه غرفة في أعلى الدير ذات أربع طاقات إلى أربع جهات، وكان يذهب إلى هذا الدير مظهرًا

(١) سيرة ابن طولون لابن الداية: ص٤٩.

(٢) نشوار المحاضرة للتنوخي: ص٢٦١.

(٣) معجم البلدان: ج١، ص٩٣.

إعجابه بصورة مريم العذراء التي كانت في هيكل الدير، ويشرب على النظر إلى هذه الصورة[١]. وكان الشعراء يذهبون إلى هذا الدير، ووصفوه في شعرهم، وذكروا طيبه ونزهتهم به، ثم لهوهم ومجونهم، وأيامهم التي قضوها فيه. من ذلك قول أبي هريرة بن أبي العصام، وكان من شعراء الإخشيديين:

كم لي بدير القصير من قصف ... مع كل ذي صبوة وذي ظرف
لهوت فيه بشادن غنج ... يقصر عنه بدائع الوصف[٢]

ويحدثنا المقريزى أن الحاكم بأمر الله الفاطمي أمر بهدم هذا الدير في رمضان سنة أربعمائة. أمَّا دير مارحنا فقد كان على شاطئ بركة الحبش وبقربه بئر تعرف ببئر نجاتي عليها جميزة يجتمع الناس إليها ويشربون عندها[٣].

ومن الشعراء الذين كانوا يذهبون إلى هذا الدير الشاعر العباس بن البصري، قال عنه الشابشتي: وكان ابن البصري هذا من الخلعاء المجان، وله شعر يجري مجرى الهزل والطيب، وخدم أبا القاسم أونوجور بن الإخشيد فأحسن إليه وكساه، وصار يركب معه، وكان يلبس طيلسانًا أزرق يتشبه بالقضاة، وكان أونوجور قد حمله على برذون أصفر غليظ بطيء السير، فكان إذا سار مع أقوام من إخوانه قال لهم: صفوا لي موضعكم حتى ألحق بكم! وكان مليح المجالسة كثير النادرة، وكان يبيع الصيدلة في مسجد عبد الله بمصر[٤]. وقد قال هذا الشاعر في دير مارحنا:

---

(١) ورقة رقم ١٢٤ من كتاب الديارات لأبي الحسن الشابشتي، نسخة خطية بدار الكتب المصرية.
(٢) يتيمة الدهر للثعالبي: ج١، ص٣٢١.
(٣) ورقة ١٢٦ من كتاب الديارات.
(٤) ورقة ١٣٠ من كتاب الديارات.

يـا حامـل الكـأس أدرهـا واسـقني ... قـد ذعـر الـشوق فـؤادي فانـذعر
أمـا تـرى البركـة مـا أحـسنها ... إذ تـداعى الطـير فيهـا فَـصَفَر
أمـا تـرى نوارهـا أمـا تـرى ... حـسن مـسيل مائهـا إذا انحـدر
كـأنما صـفر الـدنانير بهـا ... مبذولـة لـيس بهـا مـن متجـر
كـأنما الجـوهر في ألوانـه ... نثـر في تلـك النـواحي فـانتثر
كـأنما كـف جـواد ولعـت ... في ذلـك الـروض بتبديـد البـدر
وأبـيض النـرجس في أجفانـه ... دمـع النـدى لـولا التـشاجي لقطـر
ونظـرة الـورد إلى أترابـه ... نظـرة معـشوق بلحـظ منكـسر
دعنـي فـما أهلـك إلا بـالجوى ... مـا عيـشة العاشـق إلا في كـدر[1]

ولابن البصري شعر كثير في الأديرة التي كانت بمصر ولا سيما في دير نهيا بالقرب من الجيزة، قال ابن فضل الله العمري عن هذا الدير: «وديرها - أي دير نهيا- هذا من أطيبها موضعًا، وأجلها موقعًا، عامر برهبانه وسكانه، وله في النيل منظر عجب؛ لأن الماء يحيط به من جميع جهاته، ويزيد في حسن متنزهاته، فإذا تصرف الماء أظهرت أرضه غرائب النوار، وعجائب الزهور المشرقة الأنوار، وله خليج ينساب انسياب أرقم، وعليه شطوط كأنها بالدبياج ترقم»[2]. وفي هذا الدير قال ابن البصري:

يـا مـن إذا سـكر النـديم بكأسـه ... غريـت لواحظـه بـسكر الفيـق
طلـع الـصباح فأسـقني تلـك التـي ... ظلمـت فـشبه لونهـا بـالزنبق
والـق الـصباح بنـور وجهـك إنـه ... لا يلتقـي الفرحـان حتـى نلتقـي
قلبـي الـذي لم يبـق فيـه هـواكم ... إلا بقيـة نـار شـوق قـد بقـي

(١) ورقة ١٢٨ من كتاب الديارات.
(٢) مسالك الأبصار: ج١، ص٣٦٢.

أو ما ترى وجه الربيع وقد زهت ... أنواره بنهاره المتألق
وتجاوبت أطياره وتبسمت ... أشجاره من ثغر زهر مورق
لم يغدها طل الرذاذ ببرده ... حتى تفتح كل جفن مطبق
والبدر في وسط السماء كأنه ... وجه مليح من قناع أزرق
يا للديارات الملاح وما بها ... من طيب يوم مر لي بتشوق
أيام كنت وكان لي شغل بها ... وأسير شوق صبابتي لم يطلق
يا دير «نهيا» ما ذكرتك ساعة ... ألا تذكرت الشباب بمفرقي
والدهر غض والزمان مساعد ... ومقامنا ومبيتنا بالجوسق
يا دير «نهيا» إن ذكرت فإنني ... أسعى إليك على الخيول السبق
وإذا سئلت عن الطيور وصيدها ... وجنوسها فاصدق وإن لم تصدق
فالغر فالكروان فالقارور إذ ... يشجيك في طيرانه المتحلق
أشهدت حرب الطير في غيطانه ... لما تحرق منه كل محرق؟
والزمج الغضبان في رهط له ... ينحط بين مرعد ومبرق
ورأيت للبازي سطوة موسر ... ولغيره ذل الفقير المملق
كم قد صبوت بغرتي في شرتي ... وقطعت أوقاتي برمي البندق
وخلعت في طلب المجون حبايلي ... حتى نسبت إلى فعال الأخرق
ومهاجر ومكاسر ومنافر ... قلق الفؤاد به وإن لم يقلق
لو عاين التفاح حمرة خده ... لصبا إلى دبياج ذاك الرونق
يا حامل السيف الغداة وطرفه ... أمضى من السيف الحسام المطلق
ارفق بعبدك لا تطل أشجانه ... وارفق به يا صاحب الثغر النقي[1]

ولم يقتصر اللهو على أن يصف الشعراء هذه الأديرة بهذا الوصف الجميل الرقيق، وذكر الطرد والصيد كالذي رأيناه في قصيدة ابن البصري السابقة؛ بل

(١) ورقة ١٢٩، ١٣٠ من الديارات.

نجد كثيرًا من الشعراء يصفون مجالس الخمر ويذكرون مجونهم وفحشهم ويعرضون بالدين؛ فمثلًا الشاعر سعيد بن فاخر المعروف بقاضي البقر - وكان شاعر الإخشيد وابنه-[1] قال:

حي على الكأس في الصباح ... مطرحًا ناصح كل لاح
وانتهب العيش ما تأتى ... فأنت منه على جناح
وأجرني من عقول قوم ... عموا عن الشرب والملاح
يا رب دعني بلا صلاح ... يا رب ذرني بلا فلاح
يدي مدى الدهر فوق ردف ... وراحتي تحت كأس راح[2]

فهذا الشاعر المصري الذي أنشد مثل هذا الشعر لا يقل في الفجور والعبث عن أشد شعراء العراق مجونًا وفسقًا، فهو هنا قد تهكم بالدين، ودعا الله أن يديم عليه ذلك التهاون بالدين مما يدل على أن حياة اللهو كان لها أثر كبير في شعراء ذلك العصر.

لم يكن قاضي البقر وحده الذي أنشد مثل هذا المجون والفحش؛ بل نجد الشاعر أبا هريرة أحمد بن أبي العصام -وهو من شعراء أواخر الدولة الإخشيدية- قد انهمك في اللذات، وأسرف في اللهو، وأدمن على الشراب، فوصف الخمر ومجالس اللهو، وكان كزميله قاضي البقر متهاونًا في دينه، لم يخش صاحب زندقة ولا سلطان، وكان كزميله يتهكم بالدين؛ بل هو أشد تهكمًا من زميله بفرائض الإسلام:

مجلس لا يرى الإله به غير ... ر مصل بلا وضوء وطهر

(١) المغرب في حلى أخبار المغرب: ص١٠٣.
(٢) المغرب: ص١٠٣.

سـجد للكئـوس مـن دون تـسبيـ ـح سـوى نغمـة لعـود وزمـر[١]

إذن ظهـر اللهـو والمجـون في الـشعر المـصري في هـذا العـصر، ولم يبـال الشاعر المصري بالشعور الديني الذي كان يسود البلاد. ونعجب إذا عرفنا أن مثل هذا الشعر صدر عن شعراء على اتصال وثيق بالأمراء، فهل نفهم من ذلـك أن أمـراء مـصر في هـذا العـصر تهـاونوا بالـدين إلى حـد أنهـم سـمحوا للشعراء المتصلين بهم أن يعبثوا بمثل هذه الأشعار.

والواقـع أن أمـراء مـصر في ذلـك العـصر قـد أكثـروا مـن الـترف والنعـيم، وأرادوا أن يتمثلوا بخلفاء العباسيين في لهوهم ومجونهم، وشاركهم الشعراء والكتـاب في اللهـو؛ وإن كـان الـشعور الـديني والتمسك بأهـداب الـدين يعـم البلاد. يحدثنا المقريزي: أن أحمد بن طولون كان قد اتخذ حجرة بقربه فيها رجـال سـماهم المكـبرين، يبيـت مـنهم في كـل ليلـة أربعـة يتعـاقبون الليـل، ويكـبرون ويـسبحون، ويقـرأون القـرآن تطريبًـا بألحـان، ويتوسـلون بقـصائد زهدية، فلما ولي خمارويه أقرهم على حالهم، وأجراهم على رسمهم، وكان يجلس للشرب مع حظاياه في الليل وقيانه تغنين، فإذا سمع أصوات هؤلاء يـذكرون الله والقـدح في يـده، وضـعه بـالأرض وأسـكت مغنياتـه، وذكـر الله معهـم، حتى يسكت القوم، لا يضجره ذلك ولا يغيظه أن قطع عليه ما كان فيه من لذة بالسماع[٢]، مما يدل على أن الشعور الديني كان متغلغلًا في نفس الأمير، ولكنه كان يأخذ بحظه من اللهو. وشارك الشعراء أمراءهم في هذا اللهو وأخذ الشعراء يدعون بعضهم بعضًا على مجالس اللهو، كما كان يفعل

(١) المغرب: ص١٠٤.

(٢) الخطط: ج٢، ص١٠٩.

شعراء العراق؛ فالشاعر المصري عبد الله بن محمد بن أبي الجوع -وكان من شعراء الإخشيديين، وصادق أبا الطيب المتنبي في مصر وروى عنه، وكان من أكبر علماء اللغة في عصره- دعا بعض إخوانه بقوله:

شعبان قد صار نضوًا ... ولم نفد فيه لهوا
وليس ذلك منا ... جهلًا ولا كان سهوا
فبالمودة إلا ... بكرت للقصف عدوا
حتى نقوم فنرفوا ... ما خرق الدهر رفوا
من بعد تقديم جدي ... مسمن ظل يشوى
له ثلاثون يومًا ... يحبو إلى الضرع حبوا
لما انتزعت حشاه ... عوضته البقل حشوا
وقد عنيت بجام ... ملأته لك حلوى
وقهوة بنت كرم ... صفت من الذم صفوا
ما شعشعت قط إلا ... سطت على الهم سطوا
جنبتها كل وغد ... يمحو المحاسن محوا
إلا إذا ما اقتنصنا ... عذب الخلائق حلوا
وشادن ذي دلال ... يشدوا فيلهيك شدوا
إما غناء وإما ... عجائبًا عنه تروى
حتى تظل بما فيـ ... ـه من وقارك خلوا
وعندنا لك ورد ... يحدو المسرة حدوا
ريحانه لا يوازي ... لونًا وعطرًا وسروا
فما اعتذارك في أن ... تفني زمانك صحوا
وأنت بعد قليل ... بالصوم والله تطوى[1]

(١) يتيمة الدهر: ج١، ص٣١٤.

وهكذا أصبح الشعر المصري أداة للمراسلة بين الأصدقاء.

وبالشعر وصف الداعون ما أعدوا للزائرين من ألوان الأكل والشرب وما يتبع ذلك من ألوان اللهو والطرب. وهذا كله يدلنا على تطور الحياة المصرية، وتطور الشعر بتطور الحياة نفسها.

الطبيعة في الشعر المصري:

ويظهر تطور الشعر المصري في هذا الفن الذي أجاده كثير من شعراء مصر في ذلك العصر، وهو فن الوصف؛ فالطبيعة وما فيها من جمال بعثت على إغراء الشعراء على وصفها، وشعراء مصر الذين لم يكن لهم نصيب في وصف جمال الطبيعة قبل عصر الطولونيين، أو قل: إنه لم يصلنا عنهم شيء في الوصف قبل عصر الطولونيين، أصبح عندهم وصف الطبيعة فنًّا يقصد لذاته، بعد أن صقلت الحياة الجديدة مزاج الشعراء وصفت قريحتهم، ولعل الشاعر ابن طباطبا العلوي كان أقدر شعراء مصر في هذا العصر على الوصف، وكان له من فنه -بل من حياته- ما جعله في طليعة شعراء الوصف، فهو شاعر قال الشعر حبًّا في الفن الشعري، وعن طبيعة رجل فنان، ولم يقصد لغرض آخر سوى اللذة الفنية، فاستطاع أن يمتع نظره وحواسه بما حوله من الطبيعة، وما فيها من جمال وبهاء فتأثر بما رآه، وأنشد الشعر تحت تأثير جمال الطبيعة الذي فتن به، وأخذ في تشبيه الموصوف وسبغ عليه من الخيال، وألبسه ثوبًا يتفق مع مزاجه الشعري الفني؛ ففي وصفه للهلال قال:

وكأن الهلال لما تبدى ... شطر طوق المرآة للتذهيب

أو كقوس قد انحنت أو كنؤي[١] أو كنون في مهرق مكتوب[٢]

ووصف البركة بقوله:

كم ليلة ساهرت أنجمها التي عرصات[٣] أرض ماؤها كسمائها
قد سيرت فيها النجوم كأنما فلك السماء يدور في أرجائها
أحسن بها بحرًا إذ التبس الدجى كانت نجوم الليل من حصبائها
ترنو إلى الجوزاء وهي غريقة تبغي النجاة ولات حين نجائها
تطفو وترسب في اصطفاق مياهها لا مستعان لها سوى إنمائها
والبدر يخفق وسطها فكأنه قلب لها قد ريع في أحشائها[٤]

وقد ذكرنا كيف كان شعراء مصر يذهبون إلى الأديرة وغيرها من أماكن اللهو، وكيف كانوا يصفون هذه البقاع، ويتحدثون بطيبها وجمالها، ويترنمون بجمال طبيعتها، مما يدلنا على أن شعراء هذا العصر قد دقت شعورهم، ورق فنهم، فوصفوا الطبيعة وجمالها، ولا أشك أن شعرًا كثيرًا قد أنشد في الوصف، ولكن هذا الشعر فُقد، ولم يبق منه إلا أبيات قليلة، وهي إن دلت على شيءٍ فهي تدل على أن الشاعر المصري نظر حوله فرأى ما لم يره غيره، فأوحى إليه الشعر، ووصف ما رآه وما جال في خاطره، وصفا قربه إلى الطبيعة فأدركها، وفي هذا اللون من الفن يتجلى فن الشاعر المرهف الحس، الدقيق الشعور، الطبيعي الشعر. وهذا اللون نجده يغلب على شعراء هذا العصر مما يميزهم عن شعراء العصور السابقة، فإنا لم نعهد أحدًا من شعراء العصور السابقة قال

(١) النؤي: الحفير حول الخباء أو الخيمة؛ لمنع السيل.

(٢) المغرب: ص٥٠.

(٣) عرصات وعراص وأعراص، جمع عرصة: كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء.

(٤) حلبة الكميت: ص٣٣٩، (مطبعة الوطن ١٢٩٩هـ).

مثل الذي أنشده الشاعر صالح بن موسى في وصف البركة:

أو مـــا تـــرى حـــسن الريـــا ... ض ومـــا اكتـــسين مـــن الزهـــر
وجـــــه الربيـــــع وحبـــــذا ... وجـــــه الربيـــــع إذا ظهـــــر
الـــــوشي ينـــــشر والمـــــلا ... حـــــف والمطـــــارف والحـــــبر
هـــــذا البنفـــــسج في الحـــــدا ... د بغـــير حـــزن قـــد ظهـــر
وأتـــــى البهـــــار بـــــصفرة ... فلكـــــل حـــــسن قـــــد بهـــــر
وكـــــــأن آذريونـــــــه ... كاســـــات خمـــــر تبتـــــدر
وكـــــأنما المنثـــــور عقـــــ ... ـــــد في جوانبـــــه انتثـــــر
والأقحـــــوان فـــــضاحك ... عـــــن عـــــسجد فيـــــه درر
وشـــــقائق الـــــنعمان كالـــــ ... ـــــأعلام ثـــــم لمـــــن نظـــــر
وتـــــورد الـــــورد الذكـــــ ... ـــــي وفـــــاح مـــــسكًا في الـــــسحر
وتجاوبـــــت طـــــير الغـــــصو ... ن بكـــــل لحـــــن مـــــشتهر
فمغـــــرد حـــــسن الغنـــــا ... شـــــدا وآخـــــر قـــــد زمـــــر
وتـــــسرقت أنفاســـــنا ... بنـــــسيم أنفـــــاس الـــــسحر[1]

من ذلك كله نستطيع أن ندرك إلى أي حد تطور الشعر في مصر في هذا العصر، كما نلاحظ أن الشعراء عنوا بالمعاني كما أنهم عنوا بالألفاظ وتنسيقها، وأكثروا من التشبيهات الرائعة التي أضافت إلى شعرهم جمالًا، كما نجد بعض الشعراء قد كلف بالزينة اللفظية وتعمدها كما كان يتكلفها أصحاب مسلم وأبي تمام. وفي حديثنا عن الشاعر ابن جدار سنجد كيف تلاعب هذا الشاعر باللفظ تلاعبًا غريبًا لم نجد له مثيلًا عند شعراء البديع.

(١) الديارات للشابشتي: ورقة ١٢٨ وما بعدها.

أغراض أخرى للشعر:

أمَّا فنون الشعر التي طرقها شعراء مصر في هذا العصر، فقد تحدثنا عن أكثرها كما أننا نجد شعرًا كثيرًا في الرثاء كقصيدة محمد بن الحسن بن زكريا في رثاء الإخشيد التي أولها:

في الرزايـــا روائـــع الأوجـــال ... والبرايـــا دريئـــة الآجـــال
وكـــذا الليـــل والنهـــار اعتبـــار ... للـــورى في تفكـــر الأحـــوال
كـــل شيء وإن تمـــادى مـــداه ... قـــصره للفنـــاء أو للـــزوال[1]

وكقول مهلهل بن يموت في رثاء الإخشيد أيضًا:

أي عـــز مـــضى مـــن الإســـلام! ... أي ركـــن أضـــحى حـــديث انهـــدام
ذاق موتًـــا محمـــد بـــن طغـــج ... هـــو ليـــث الـــشرى وغيـــث الغـــمام
فقـــد النـــاس مـــولى الإنعـــام ... فهـــم ســـائمون كالأنعـــام
مـــات رب العـــلا وراعـــي الرعايـــا ... والـــسرايا وكافـــل الأيتـــام[2]

أمَّا الهجاء فقد ذكرنا هجاء ابن أبي داؤد في ابن طولون، وظهر في هذا العصر الهجاء بين الشعراء، كالذي كان بين صالح بن مؤنس، وعبد الله بن أبي الجوع[3]، وفي هجائهما نرى شيئًا من الفحش كالذي كان في هجاء جرير والفرزدق، وكان هناك لون آخر من الهجاء لم يكن بين الشعراء؛ إنما كان هجاء بين العلماء كالذي رأيناه في العصور السابقة، وبخاصة هجاء القضاة، فابن سكرة الشاعر هجا الحسين بن أبي الشوارب القاضي المتوفى سنة ٣٤٩هـ

(١) هذه القصيدة بأكملها في نهاية الأرب للنويري: ج٥، ص١٨٤.
(٢) هذه القصيدة بأكملها في نهاية الأرب للنويري: ج٥، ص١٨٦.
(٣) راجع يتيمة الدهر: ج١، ص٣٠٩، ٣١٠.

بقوله:

ولقد جنى قاضي القضا ... ة حسين نجل أبي الشوارب
هذا الذي هتك الشرا ... ئع بالبدائع والمثالب
هذا المضمر للفرو ... ج وللدماء بغير راكب[1]

وبالرغم من أن القاضي محمد بن أحمد بن الحداد -الذي ولي قضاء مصر سنة أربع وعشرين وثلاثمائة من الهجرة- كان عالمًا فقيهًا حتى قال عنه ابن زولاق: كان فقيهًا متعبدًا يحسن علومًا كثيرة منها علم القرآن وعلم الحديث والأسماء والكنى والرواة والنحو واللغة واختلاف العلماء وسير الجاهلية وأيام الناس والأنساب، ويحفظ شعرًا كثيرًا. غير مطعون عليه في قول ولا فعل، مجموعًا على صيانة وطهارة، وكان من محاسن مصر حاذقًا بعلم القضاء حسن التوقيعات ...[2] بالرغم من ذلك كله فلم يتركه خصومه من الهجاء، فقد رميت في ولايته رقعة في الجامع فيها أبيات شعر منها:

قولوا لحدادنا الفقيه ... العالم الماهر الوجيه
وليت حكمًا بغير عهد ... وغير عقد نظرت فيه
ثم أبحث الفروج لما ... وقعت فيها على البديه
هذي فعال حملت فيها ... وزرك مع وزر من يليه
وهل ترى ذا ولست فيه ... بجائز من مخالفيه
أنكرت حالًا من ابن عمرو ... ما أنت فيه ومرتضيه
والمكر في الناس داء سوء ... والعجب أيضًا لمن يرتديه[3]

---

(١) الكندي: ص ٥٤٦.
(٢) شرحه: ص٥٥١.
(٣) شرحه: ص٥٥٦.

ولما بلغت هذه الأبيات محمد بن موسى -المعروف بسيبويه المصري- مدح ابن الحداد بقصيدة جاء فيها:

ما يضر البحر أمسى زاخرًا إن رمى فيه صبي بحجر

والقاضي محمد بن بدر الذي ولي قضاء مصر ثلاث مرات آخرها سنة تسع وعشرين وثلاثمائة، هجا زميله القاضي ابن وليد -الذي عزل عن القضاء سنة ستة وثلاثين وثلاثمائة- بقصيدة طويلة منها:

لو كنت تخشى قضيات المعاد لما ألقيت في كل أمر فاضح علما
أعمى عن الرشد في كل الأمور فقد أصبحت في الدين بين الناس متهما
يابن الوليد تدبر ما أتيت به ولا تكن للهوى مستكملًا عمما
لو كنت تسمع قول الحق معتقدًا أو كنت تخشى عذاب الله معتصما
لما استعنت بحماد اللعين وما رأيت أنت له في صالح قدما
جعلته كاتبًا يمضي الأمور ولم يمس في العلم قرطاسًا ولا قلما[1]

فهذا الهجاء يكاد يكون صورة لهجاء العلماء الذي رأيناه في العصر السابق للعصر الطولوني.

من هذا كله نستطيع أن ندرك تطور الحياة العامة في مصر، وتطور الحياة العقلية والأدبية فيها، وأن نقول: إن مصر كانت عظيمة الحظ من العلوم الإسلامية والأدبية العربية، وساهمت في هذه الألوان المختلفة من الثقافات؛ فظهر الأدب المصري مصطبغًا بالصبغة المصرية الخالصة، فاختلف الأدب المصري عن الأدب في الأقطار الإسلامية الأخرى.

(١) الكندي: ص٥٧٠.

الشعراء الوافدون:

وكانت الحياة في مصر أيام الطولونيين والإخشيديين تجذب إليها شعراء وعلماء الأقطار الأخرى، وتحبب إليهم المقام في مصر أو الرحلة إليها، وسأحاول أن أُلم ببعض هؤلاء الشعراء الذين وفدوا على مصر في ذلك العصر.

المتنبي في مصر:

إذا تحدثت عن المتنبي في مصر فلن أتحدث عن وفوده على كافور الإخشيدي ومدحه لهذا الأمير ثم هجائه له، هذا كله معروف متداول، حدث عنه كثير من الأدباء والمؤرخين، وألموا بجميع نواحيه، ولكني سأحاول الحديث عما تركه الأدباء والمؤرخون، ولم يتحدثوا عنه، فلا أشك أن المتنبي كانت له صلة ببعض المصريين وأنه أنشد شعرًا في بعض الشخصيات المصرية غير كافور الإخشيدي وفاتك، كما تحدثنا بعض الروايات أن من شعراء مصر من نقد المتنبي وعاب شعره.

وإذن فحياة المتنبي في مصر تكاد تكون حلقة من سلسلة حياته في حلب، وأن العلماء والشعراء الذين كانوا في خدمة سيف الدولة الذين هاجموه واضطروه إلى الرحيل عنهم، وجد أمثالهم في خدمة أمير مصر فهاجموه واضطروه إلى الرحيل أيضًا.

وجد المتنبي في مصر خصمًا قويًّا في شخص الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات المعروف بابن حنزابة، الذي وزر لأنوجور بن الإخشيد، ثم لأخيه أبي الحسن علي، ثم لكافور، إلى أن انقضت دولة الإخشيديين، وكان عالمًا

محدثًا كما كان مكرمًا لأهل العلم والحديث، وقد رحل إليه أبو الحسن الدارقطني وصنف له مسندًا، وكتب الدارقطني عنه مجالسه[١]، كان يطمع ابن حنزابة في أن يمدحه المتنبي كغيره من الشعراء، وروى ابن خلكان أن المتنبي نظم قصيدته التي أولها:

نـاد هـواك صـبرت أم لم تـصبرا وبكـاك إن لم يجـر دمعـك أو جـرى

في مدح الوزير ابن حنزابة، فلما لم يرضه صرفها عنه، ولم ينشده إياها، فلما توجه إلى عضد الدولة حول القصيدة إلى مدح ابن العميد[٢]، فمعنى هذا أن الوزير كان حاقدًا على المتنبي لأن الشاعر لم يمدحه، وكان الشاعر حاقدًا على الوزير؛ لأن الوزير لم يرضه، فكانت نتيجة ذلك أن أخذ الوزير يغري الشعراء والعلماء بمعارضة المتنبي، وكانت فرصة للشعراء المصريين الذين كانوا يحقدون على المتنبي ما بلغه من قوة الشعر وذيوع الصيت، فكثر حساد المتنبي في مصر، منهم أبو القاسم بن أبي العفير الأنصاري الشاعر، الذي قيل: إنه كان في حضرة كافور الإخشيدي والوزير ابن حنزابة، وأبي بكر بن صالح، وكان المتنبي حاضرًا ذلك المجلس، فعارض المتنبي قول الأنصاري:

نظر المحب إلى الحبيب غرام

فقال المتنبي: إن العرب لا تقول إليه غرام، وإنما تقول له. فقال الأنصاري: تقول إليه ولديه وله وحروف الخفض ينوب بعضها عن بعض!![٣] ويخيل إليَّ أن أبا بكر بن صالح وابن حنزابة انتصرا للشاعر

(١) راجع ترجمته في ياقوت: ج٧، ص١٦٣، (طبعة فريد رفاعي بك)، وابن خلكان: ج١، ص١١٠.
(٢) ابن خلكان: ج١، ص١١١.
(٣) يتيمة الدهر: ج١، ص٣٣٣.

المصري؛ لأنه مدحهما وعرض بالمتنبي في قوله:

أمـــا الثنـــاء فـــصادر بـــك وارد ... بـــاد بـــما تـــسدي إلي وعائـــد
لـــك يـــا أبـــا بكـــر إلي صـــنائع ... أيقظـــن أحـــوالي وجـــدي راقـــد
أوليتنـــي نعـــمًا متـــى أنكرتهـــا ... شـــهدت عـــليَّ مواهـــب وفوائـــد
وقـــصائد لي فيـــك لـــولا أنهـــا ... كلـــم شـــهدت بـــأنهن مـــشاهد
ولهـــن في عـــين الـــولي شـــواهد ... تـــترى وفي عـــين العـــدو جلامـــد
لمـــا تعـــرض لي بمقـــت حاســـد ... أبدى الملام وكيف يرضى الحاسد
مـــا زال ينـــشد قـــائمًا حتـــى إذا ... أنـــشدت عارضـــني لأني قاعـــد
في مجلـــس أمـــا الـــوزير فمنكـــب ... فيـــه يؤيـــده وأنـــت الـــساعد
ولي ولا أنـــا شـــاكر لـــسؤاله ... فيـــه ولا هـــو للإجابـــة حامـــد[1]

وورد في كتاب الصبح المنبي أن محمد بن موسى الملقب بسيبويه كان يقول: مدح الناس المتنبي على قوله:

ومن نكد الدنيا على الحُر أن يرى ... عـدوًّا لـه مـا مـن صـداقته بـد

ولو قال: ما من مداراته أو مداجاته بد لكان أحسن وأجود. واجتاز المتنبي به، فوقف عليه وقال: أيها الشيخ، أحب أن أراك. فقال له: رعاك الله وحياك. فقال له: بلغني أنك أنكرت عليَّ قولي: «عدوًّا له ما من صداقته بد» فما كان الصواب عندك؟ فقال له: الصداقة مشتقة من الصدق في المودة، ولا يسمى الصديق صديقًا وهو كاذب في مودته، فالصداقة إذن ضد العداوة، ولا موقع لها في هذا الموضع، ولو قلت: ما من مداراته أو مداجاته لأصبت، هذا رجل منا (يريد نفسه) قال:

---

(١) شرحه.

أتـــاني في قمـــيص الـــلاز يـــسعى عـــــدو لي يلقـــــب بالحبيـــــب

فقال المتنبي: أمع هذا غيره؟ قال: نعم.

وقـــد عبـــث الـــشراب بوجنتيـــه فـــصير خـــده كـــسنا اللهيـــب
فقلـــت لـــه: متـــى اســـتعملت هـــذا لقـــد أقبلـــت في زي عجيـــب
فقـــال الـــشمس أهـــدت لي قميـــصًا مليـــح اللـــون مـــن نـــسج المغيـــب
فثـــوبي والمـــدام ولـــون خـــدي قريـــب مـــن قريـــب مـــن قريـــب[1]

فتبسم المتنبي وانصرف، وسيبويه يصيح عليه: أبكم الرجل وجلائل الله ...[2]. وهذا الشاعر الذي عارض المتنبي هو أبو بكر محمد بن موسى بن عبد العزيز الكندي ولد بمصر سنة أربع وثلاثين ومائتين، وتوفي في صفر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة. كان عالمًا بعلوم القرآن والحديث، أخذ عن النسائي وإسحاق بن إبراهيم المنجنيقي والطحاوي وغيرهم، وكان يعرف من النحو والغريب ما لقب بسببه بسيبويه، وتفقه على مذهب الشافعي وتلمذ لأبي بكر بن الحداد، وأخذ علم الاعتزال عن الواسطي وجه المتكلمين بمصر إذ ذاك، وكان يظهر الكلام في الاعتزال في الطرق والأسواق فيحتمل لما هو عليه، وكان شاعرًا من فحول الشعراء جالس أنوجور بن الإخشيد أمير مصر، والحسين بن محمد المادرائي وزير مصر، ونادمهما، كما كان محبوبًا عند جميع

(١) يفهم من كتاب الصبح المنبي أن هذه الأبيات لسيبويه المصري، ولكن هذه الأبيات وردت في يتيمة الدهر: ج١، ص٣٣٨، منسوبة إلى محمد بن عباس البصري.

(٢) الصبح المنبي ص٦٣، وأخبار سيبويه المصري لابن زولاق، نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ١٢٠ع (تاريخ).

المصريين[١].

وبجانب هؤلاء الشعراء الذين عارضوا المتنبي، وجد آخرون صحبوا المتنبي وأخذوا عنه، وحدثنا الثعالبي عن كثير منهم أمثال عبد الله بن محمد بن أبي الجوع[٢] وصالح بن رشدين الكاتب، وكان أحد أئمة الكتاب المهرة في سائر الآداب، صحب المتنبي وروى شعره[٣].

إذن انقسم الشعراء في مصر بين حاسد للمتنبي وبين صديق له يروى عنه، كما انقسم أمراء مصر في أمره، فكان ابن حنزابة الوزير ساخطًا عليه؛ لأن الشاعر لم يمدحه، ولذلك هجاه المتنبي مع هجائه لكافور فقد قيل: إن المتنبي قصد الوزير بقوله:

وكم ذا بمصر من المضحكات ... ولكنه ضحك كالبكا
بها نبطي من أهل السواد ... يدرس أنساب أهل الفلا[٤]

أراد بالنبطي الوزير ابن حنزابة، بينما مدح المتنبي رجلًا من قيس هو عبد العزيز الخزاعي زعيم أهل الحوف، وهو الذي هيأ للمتنبي وسائل الهروب من مصر، ولذلك قال فيه المتنبي:

لئن مر بالفسطاط عيشي فقد حلا ... بعبد العزيز الماجد الطرفين
تناول ودي من بعيد فناله ... جرى سابقًا في المجد ليس برين

إذن اتصل المتنبي بالمصريين، كما ألقى عليهم بعض العلوم في مصر، وقد

---

(١) راجع أخبا سيبويه المصري في معجم الأدباء، ويتيمة الدهر، وكتابه أخبار سيبويه المصري.
(٢) يتمية الدهر: ج١، ص٣١٤.
(٣) شرحه: ص٣١٧.
(٤) مسالك الأبصار للعمري، (نسخة خطية بدار الكتب المصرية)، وابن خلكان: ج١، ص١١٢.

أثبت الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام أن المتنبي قرأ كتاب «المقصور والممدود» لابن ولاد وأنه أخذ على مؤلفه غلطات[١]. كما تحدث الأستاذ الدكتور طه حسين بك طويلًا عن أثر مصر في شعر المتنبي[٢]، فليرجع إلى ما كتباه ففيهما كل الغناء.

الناشئان الأكبر والأصغر:

أمَّا الناشئ الأكبر فهو أبو العباس عبد الله بن محمد المعروف بابن شرشير أو الناشئ الأكبر؛ ولد بالأنبار، وأقام زمنًا طويلًا ببغداد، وبها أنشد جل شعره، وتلقى علومه التي عرف بها، وتكسب بهذه العلوم، فذاع فضله، وانقاد له الشعر وفنونه، حتى أنه استطاع أن يعارض أشعار القدماء، وباتساع علمه في الكلام أن ينقض علل النحاة فرماه أعداؤه بالوسوسة، ووشوا به، فخاف قوة أعدائه، فخرج إلى مصر يتجر بعلومه[٣]. لم نعلم أن الناشئ الأكبر اتصل بأمير من أمراء مصر؛ إذ أخذ من علمه وقوة فطنته مكتسبًا يغنيه عن سؤال الأمراء، فمكث في مصر يعلم ما حذقه حتى توفي سنة ثلاث وتسعين ومائتين.

كان هذا الشاعر قليل الحظ بعد مماته، كما كان بائسًا في حياته، فلم يعن بشعره أحد حتى ضاع ديوانه، ولم يصلنا من شعره إلا النزر اليسير؛ مع أن الرواة أجمعوا على أن الناشئ الأكبر يُعد في طبقة ابن الرومي والبحتري

(١) راجع ذكرى أبي الطيب للأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام: ص٣٠٧ وما بعدها.
(٢) مع المتنبي للأستاذ الدكتور طه حسين بك: ص٥١١-٦٤٦.
(٣) ابن خلكان: ج١، ص٢٦٣.

وأنظارهما[١]، ثم هو يمتاز عن غيره من الشعراء بسعة اطلاعه في العلوم، وكان أستاذ أبي الحسن الأشعري المعتزلي صاحب المذهب المعروف، وقد وصلنا شيء من نظمه في الكلام يدلنا على مقدرته واطلاعه؛ فمن ذلك قوله:

ونحن أناس يعرف الناس فضلنا ... بألسنتا زينت صدور المحافل
تنير وجوه الحق عند جوابنا ... إذا أظلمت يومًا وجوه المسائل
صمتنا فلم نترك مجالًا لصامت ... وقلنا فلم نترك مقالًا لسائل[٢]

ويروي البغدادي في تاريخه أن للناشئ قصيدة واحدة في فنون من العلم على روي واحد تبلغ أربعة آلاف بيت، وروى ابن كثير في «البداية والنهاية» قصيدة للناشئ في نسب الرسول صلى الله عليه وسلم وهي طويلة تبلغ نحو ألف بيت، ووصفها ابن كثير بقوله: «وهذه القصيدة تدل على فضيلته وبراعته وفصاحته وبلاغته، وعلمه وفهمه، وحفظه وحسن لفظه، واطلاعه واضطلاعه، واقتداره على نظم هذا النسب الشريف في سلك شعره، وغوصه على هذه المعاني التي هي جواهر نفيسة من قاموس بحره»[٣]. وأورد الحصري في كتابه «زهر الآداب» مقالًا من كتاب للناشئ في الشعر، أوضح فيه معنى الشعر وأغراضه[٤].

ولست أدري أي شعر الناشئ قيل في مصر، وأي كتبه التي ذكرها المؤرخون ألفت بها، ولا شك أن الحياة العقلية والحياة الأدبية في مصر كان

---

(١) شرحه.

(٢) زهر الآداب: ج٤، ص٣.

(٣) البداية والنهاية، نسخة فتوغرافية بدار الكتب المصرية.

(٤) زهر الآداب: ج٣، ص٤٩.

لهما أثر كبير في هذا الشاعر، وربما أنشد الناشئ بمصر بعض أشعاره في الصيد. فقد رأينا شعراء مصر في هذا العصر كانوا يذهبون إلى الصحراء وتلال المقطم للمطاردة والصيد، وقالوا أشعارًا في ذلك، فربما قلدهم الناشئ وتحدث في جوارح الصيد وآلاته، وما يتعلق به، وربما أخذ كشاجم شيئًا من أشعار الناشئ مستشهدًا بها عندما وضع كتابه في المصايد والمطارد.

أما الناشئ الأصغر فهو علي بن عبد الله بن وصيف، وكان متكلمًا بارعًا كسميه[١]، أخذ علم الكلام عن أبي سهل بن نوبخت المتكلم، كما كان من كبار الشيعة، وفد على الكوفة سنة خمس وعشرين وثلاثمائة وأملى شعره بجامعها، وكان المتنبي وهو صبي يحضر مجلسه[٢]، ووفد على سيف الدولة بحلب ومدحه، ويحدثنا ياقوت أن الناشئ الأصغر قصد كافورًا بمصر وامتدحه، وامتدح ابن حنزابة وكان ينادمه[٣]؛ ولكن لم يصلنا شيء من شعره في مصر، وتوفي سنة ست وستين وثلاثمائة ببغداد.

كشاجم:

وفد على مصر في ذلك العصر الشاعر الأديب أبو الفتح محمود بن الحسين المعروف بكشاجم. وهو من أهل إقليم الرملة الذي كان تابعًا لمصر في ذلك العصر، ونفهم من ديوانه أنه جاء مصر عدة مرات. وكان كلما بعد عنها حنَّ إليها، وإلى ما بها من رياض وحوائط، وإلى حياة اللهو والمجون مما تصبو إليه نفس كشاجم الماجنة:

---

(١) ابن خلكان: ج١، ص٣٥٤.

(٢) شرحه.

(٣) معجم الأدباء: ج٥ ص٢٣٥، (طبعة مرجوليت).

قد كان شوقي إلى مصر يؤرقني ... فاليوم عدت وعادت مصر لي دارا
أغدو إلى الجيزة الفيحاء مصطحبًا ... طورًا وطورًا أرجي السير أطورا
بينا أسامي رئيسًا في رئاسته ... إذ رحت أحسب في الحانات خمارا
أما الشباب فقد صاحبت شرهم ... وقد قضيت لبانات وأوطارا
من شادن من بني الأقباط يعقد ما ... بين الكثيب وبين الخصر زنارا[1]

أخذ كشاجم بحظ وافر من حياة اللهو التي كانت بمصر، وذهب كما ذهب شعراء مصر إلى الأديرة؛ ففي دير القصير كان كشاجم يتصيد الظباء لطعامه، أو ليتخذ من لحمها ما يأكله مع شرابه، بين عزف القيان وغنائهنَّ.

سلام على دير القصير وسجنه ... فجنات حلوان إلى النخلات
منازل كانت لي بهن مآرب ... وكانت مواخيري ومنتزهاتي
هنالك تصفو لي مشارب لذتي ... وتصحب أيام السرور حياتي[2]

فهذا يدلنا على أن الشاعر اختلط بالمصريين، ولها كما لهوا، والتمس مجونهم ما تحدث به في هذا الشعر، وتأثر بالبيئة المصرية الخالصة فوصفها في شعره.

تدلنا حياة كشاجم على أن الشاعر كان متكسبًا بشعره، ولا ندري بمن اتصل من المصريين، وإن كنت أرجح أنه مدح كافورًا، ثم عاد فهجاه، وعرض به في أشعاره، فقد قيل: إن الشاعر كان له غلام اسمه كافور فكان يهجو غلامه ويعرض بالأمير:

حكيت سميك في برده ... وأخطأك اللون والرائحة

(١) ديوان كشاجم، طبع بيروت سنة ١٣١٣هـ.
(٢) ديوان كشاجم.

كذلك هجا القاضي عبد الله بن محمد بن الخصيب المتوفي سنة سبع وأربعين وثلاثمائة، وكان القاضي قد اشترى دارًا كبيرة وعمرها، وأقام فيها دعوة عظيمة، فقال كشاجم:

اشـــترى الـــدار الكبـــيرة ودعـــا فيهـــا الـــوكيره
صـــغر البـــاب وفي تـــصغـ ـــيره أشــــأم طـــيره
قـــبره لا شـــك فيهـــا بعـــد أيـــام يـــسيره[1]

وقال فيه أيضًا:

قـــبح الله الخـــصيبـ ـــي فـــما أقـــبح أمـــره
اشـــترى الـــدار التـــي كـــا نـــت قـــديمًا لابـــن شـــعره
وهـــي الـــدار التـــي يبـــ ـــتز فيهـــا الله عمـــره
لا يـــتم الحـــول حتـــى يجعـــل المجلـــس قـــبره[2]

ومهما يكن من شيء فإن كشاجمًا كان فقيرًا، متكسبًا بشعره، ولكنه لم يستطع أن يفوز بالمال الذي كان يريده، ولعل غروره واعتقاده بأنه نابغة عبقري، وأنه أشعر خلق الله وأكثرهم تأدبًا، لعل هذا كله كا سببًا في شقائه، فقد زعم أنه نبي الشعر:

عـــلى أني نبـــي الـــشعـ ـــر قـــد جئـــت عـــلى فـــتره

ويخيل إليَّ أن كشاجمًا اتخذ مصر مقرًّا له، فقد ترك به أولاده وأسرته؛ فقد روى الثعالبي أن الشاعر المصري الهجاء صالح بن مؤنس هجا ابني كشاجم

(١) الكندي: ص٥٧٨.

(٢) شرحه.

أبا النصر وأبا الفرج بقوله:

يـــا ابنـــي كـــشاجم أنـــتما ... مـــــستعملان مجربـــــان
مـــات المـــشوم أبـــوكما ... فخلفـــتماه عـــلى المكـــان
وقـــــرفتما في عـــــصرنا ... ففعلـــتما فعـــل القـــران
لغـــلاء أســـعار الطعـــا ... م وميتـــة الملـــك الهجـــان[1]

ووفد على مصر في ذلك العصر أبو الفيض سوار بن شراعة الشاعر الذي اتصل ببعض أدباء مصر وشعرائها، وقد ذكرنا أنه كان صديقًا وفيًّا لابن الداية، وكان سبب انتشار شعر ابن الداية في العراق.

كما وفد على مصر عدد كبير غير الذين تحدثنا عنهم، وقد يطول بنا الأمر لو تحدثنا عنهم جميعًا. كما رحل عدد كبير من شعراء المصريين إلى الأقطار الأخرى، فالشاعر المغنم المصري أبو الحسن محمد بن سلمى الشيباني كان من شعراء سيف الدولة[2]. ورحل كثير من العلماء في طلب العلم كغيرهم من علماء وشعراء الأقطار الأخرى، فكانت الرحلة في طلب العلم من أكبر المؤثرات التي ساعدت على انتشار الثقافات المختلفة، وألوان المذاهب الأدبية والعلمية.

(١) يتيمة الدهر: ج١، ص٣١٢.
(٢) الفهرست: ص٢٤٠.

لمحة عن أشهر شعراء ذلك العصر

ابن جدار:

هو أبو القاسم جعفر بن محمد بن أحمد بن جدار، ذكره الصولي في كتاب «أخبار شعراء مصر» وقال: لم يكن بمصر مثله، كثير الشعر حسن البلاغة، عالم له ديوان شعر، ومكاتبات كثيرة حسنة(١). كان كاتبًا من كتاب الطولونيين، وشاعرًا من شعرائهم، واختص بالعباس بن أحمد بن طولون، فكان ينهي إليه كل ما كان يسمعه من الأخبار، وينقل إليه ما يدور بقصر ابن طولون، ويروى الحصري: أن أبا حفص عمر بن أيوب كاتب أحمد بن طولون قال لابن جدار: يا أبا جعفر، إنما مجلس المدام مجلس حرمة، وداعية أنس، ومسرح لبانة، ونداءهم، ومرتع لهو، ومعهد سرور، وإنما توسطته عند من لا يتهم غيبه، ولا يخشى عتبه، وقد اتصل بي ما تنهيه إلى أميرنا أبي الفضل -أعز الله أمره- من أخبار مجالستي، فلا تفعل!

فاعتذر ابن جدار وحلف ما فعل، وقام من مجلسه(٢).

وكان لشعر ابن جدار أثر كبير في عصيان العباس بن أحمد بن طولون، فقد قيل: إن العباس لما هم بالانخلاع عن طاعة أبيه، كان مرتبك الرأي، ولكن ابن جدار أنشده قصيدة يحرضه فيها على العصيان، وجاء في هذه القصيدة:

---

(١) معجم الأدباء: ج٥، ص٤١٥.

(٢) زهر الآداب: ج٢، ص١٤٣.

إذا هممت فلا ترجع وقم وثب فأنت أرفع من يسمو إلى الرتب[١]

ولما استبد العباس بالسلطان استوزر ابن جدار، وخرج معه إلى برقة، ولكن ظفر به أحمد بن طولون حين سيق له ولده الثائر، وأصحابه الذين أيدوه في حركته، بل الذين دفعوه إليها، فبنيت دكة عظيمة رفيعة السمك، وأحضر ابن جدار من خاصة العباس، فضرب ثلاثمائة سوط، وقطعت يداه ورجلاه، وألقى من الدكة سنة ثمان وستين ومائتين[٢].

كان ابن جدار صاحب لهو، ويميل إلى المجون، مع أن غزله الذي وصلنا يدلنا على أنه عفيف، مع رقة وعاطفه؛ من ذلك قوله في قينة أعجب بها وفتن بجمالها، وطرب لصوتها:

جاءت بوجه كأنه قمر على قوام كأنه غصن
ترنو بعينين من ليانهما من وسن في جفونها وسن
غنت فلم يبق في جارحة إلا تمنت لو أنها أذن[٣]

ومع ميله إلى اللهو نراه قد أظهر شدة تدينه في بعض أشعاره، فكان يطلب العفو، ويستغفر ربه، حتى نكاد نشك أن هذه الأشعار في الزهد هي من قول ابن جدار.

يا رب لي ألف ألف ذنب إن تعف يا رب فاعف جما
فابرد بعفو غليل قلب كأن فيه رسيس حمى[٤]

---

(١) المغرب: ص٨٦.
(٢) المقريزي: ج٢، ص١١٥، والكندي: ص٢٢٤.
(٣) معجم الأدباء: ج٥، ص٤١٥.
(٤) العقد الفريد: ج٣، ص٤٢٨.

ويمتاز شعر ابن جدار بكثرة تلاعبه بالألفاظ وتشبيهاته، ولكن لم يصلنا من ديوانه الذي حدثنا عنه ياقوت عن الصولى إلا عدة أبيات قليلة مبعثرة في الكتب، ومن شعره الذي أظهر فيه صنعته البيانية، وتكلفه في قول الشعر أن ابن عبد ربه قال عندما روى هذا الشعر: وقد يأتي من الشعر ما هو خارج عن طبقة الشعر منفرد في غرائبه وبديع صنعته، ولطيف تشبيهه كقول جعفر بن جدار كاتب ابن طولون[1]:

وطفلة رخصة المرائي ... ليست تجلى ولا تسمى
ألا وسلك من اللآلئ ... تعجز من يخرج المعمى
من طفلة بضة لعوب ... تلقاك بالحسن مُستتما
منهن ريا وكيف ريا ... ريا إذا لاقت المشما
تسحب ذيلين من خلوق ... قد أفنيا زعفران قما
كأنما أحنيا عليها ... من طيب ما بشرا وشما
فألقيا زعفران قم ... فانغمسا فيه واستحما
فهل تظن اسمها المريا ... يفوح لا مرطها المذما
هيهات يا أخت أهل يما ... غلطت في الاسم والمسمى
لو كان هذا وقيل سم ... مات إذا من يقول سما
قد قلت إذ أقبلت تهادى ... كطلعة البدر أو أتما
لو كنت ممن لكنت مما ... لكنني قد كبرت مما
عاتبني الدهر في عذاري ... بأحرف فارعويت لما
قوس ما كان مستقيمًا ... وابيض ما كان مدلهما
وكيف تصبو الدمى إلى من ... كان أخًا ثم صار عما

(١) العقد الفريد: ج٣، ص٤٢٦.

لي عنك يا أخت أهل يم ... شغل بما قد دنا وحما
فلست من وجهك المفدى ... ولست من قدك المحمى
أذهلني عنك خوف يوم ... يحيا له كل ما أرما
ما كسبته يدي رهينًا ... خيرًا وشرًّا أصبت ثما
تحشر فيه الجنان زفا ... وتحشر النار فيه زما
تقول هذي لطالبيها ... هيت، وهذي لهم هلما
نفسي أولى بأن أذما ... من أمرها كل ما استذما[1]

ففي هذة القصيدة ظهر تلاعب ابن جدار باللفظ مما أضعف المعنى وشوهه، كما تظهر لنا وحدة القصيدة في الشعر المصري، وعدم استقلال المعنى في كل بيت، كما ظن القدماء في الشعر العربي.

منصور الفقيه:

هو منصور بن إسماعيل بن عمر أبو الحسن التميمي المصري الضرير، كان إمامًا في الفقه، وفقه الشافعي على الأخص[2]، ووضع مؤلفات في المذهب الشافعي منها «الواجب والمستعمل» والمسافر والهداية وغير ذلك[3].

اتفق ابن خلكان وياقوت[4] على أن الشاعر ولد في رأس العين بالجزيرة وأنه قدم مصر صغيرًا، وأخذ فيها جميع علومه كما أنه أنشد بها جل أشعاره،

(١) هذه القصيدة بأكملها في العقد الفريد: ج٣، ص٤٢٦.
(٢) طبقات الشافعية الكبرى: ج٢، ص٣١٧.
(٣) ابن خلكان: ج٧، ص١٢٥.
(٤) معجم الأدباء: ج٧، ص١٨٥.

وصار له منزلة رفيعة عند القاضي أبي عبيد، بل صار من خواصه الذين كان يخلو بهم للمذاكرة والمحادثة، ولكن حل البغض محل هذا الود، وانقطع الإخاء بسبب المناقشات الفقهية، فقد قيل: إن أبا عبيد كان له كل عشية مجلس يذاكر فيه رجلًا من أهل العلم، وفي عشية منصور حدث بينهما مجادلات، انتهت بخصام العالمين، فتعصب الأمير «ذكا» وجماعة من الجند لمنصور، وتعصب جماعة من العلماء على رأسهم ابن الربيع الجيزي للقاضي، ثم حدث أن شهد ابن الربيع الجيزي على منصور بكلام زعم أنه سمعه منه، فقال القاضي: إن شهد عليه آخر بمثل ما شهد به ابن الربيع ضربت عنقه. فخاف منصور خوفًا شديدًا حتى اعتل ومات سنة ست وثلاثمائة[1]. وقيل: إنه كان حول نعشه آلاف من الجند، أظهروا سب القاضي وقذفوه، وندم القاضي نفسه على ما كان منه وتأسف على ما فاته من منصور.

رحل منصور إلى العراق حيث اتصل بالخليفة المعتز العباسي ومدحه بقوله:

ما واحد من واحد ... أولى بمجد أو مروة
من أبوه وجده ... بين الخلافة والنبوة[2]

وكل الرواة مجمعون على جزالة شعره وجودته، وأنه لم ينشد قصائد مطولة، بل كل شعره مقطعات، روى الحصري عن شعره: «وهو عالي المقطعات، لا تزال تندر له الأبيات مما يستظرف معناه، ويستحلى مغزاه،

(١) ابن خلكان: ج٢، ص١٢٦.
(٢) المغرب: ص٩٤.

ويبقى سناه»[١]. وأورد له الثعالبي كثيرًا من الأبيات التي جرت مجرى الأمثال لدقة معانيها كقوله:

شاهد ما في مضمري ... من صدق ودي مضمرك
فما أريد وصفه ... قلبك عني يخبرك[٢]

وكقوله:

من قال لا في حاجة ... مطلوبة فما ظلم
وإنما الظالم من ... يقول لا بعد نعم[٣]

وعاب عليه بعض المصريين التفقه فأجابهم بقوله:

عاب التفقه قوم لا عقول لهم ... وما عليه إذا عابوه من ضرر
ما ضر شمس الضحى والشمس ... أن لا يرى ضوءها من ليس ذا

ويخيل إليَّ أن الشاعر كان يكذب التنجيم الذي كان منتشرًا بين طبقات الناس، وظهر ذلك في شعره.

من كان يخشى زحلا ... أو كان يرجو المشترى
فإني منه وإن ... كان أبي منه بري[٥]

وكقوله:

إذا كنت تزعم أن النجوم ... تضر وتنفع من تحتها

---

(١) زهر الآداب: ج٣، ص٢٢١.
(٢) لطائف المعارف، نسخة خطية بمكتب الأزهر رقم ٥٦٢.
(٣) شرحه.
(٤) طبقات الشافعية: ج٢، ص٣١٧.
(٥) معجم الأدباء: ج٧، ص١٨٥.

فـــلا تنكـــرن عـــلى مـــن يقـــول بأنـــــك بـــــالله أشركتهـــــا[١]

من ذلك يظهر شدة حرصه على دينه، وعلومه الإسلامية الخالصة التي تنكر مثل هذه الأقوال التي انتشرت بين الناس، ولا شك أن مثل هذا الرجل كان بعيدًا كل البعد عن حياة اللهو التي جرفت أكثر شعراء مصر، فكان هذا الشاعر يمثل طبقة الشعراء والعلماء الذين لم يأخذوا بنصيب من تطور الحياة في عصره.

ابن طباطبا:

كان بمصر بعض سلالة علي بن أبي طالب، وأقاموا بها مكرمين معززين، وكانوا على اتصال حسن بالولاة والأمراء، لا يعنيهم من أمر البلد السياسي شيء، فركنوا إلى الآداب والعلوم، وأخذوا من هذه وتلك، وأنشدوا الشعر ورووه، فمن أعظمهم شأنًا في ذلك أبو القاسم أحمد بن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب[٢] كان عالمًا فاضلًا، وإليه كانت نقابة الطالبيين بمصر[٣]، كما كان شاعرًا، وكان ابناه أبو محمد القاسم بن أحمد وأبو إسماعيل إبراهيم بن أحمد شاعرين[٤]، وكان ابن ابنه الحسين بن إبراهيم شاعرًا، وقد روى لهم صاحب يتيمة الدهر بعض أشعارهم.

وإذن نستطيع أن نعد أسرة بني طباطبا في مصر من أسرات الشعر، ولكن

---

(١) شرحه.

(٢) ابن خلكان: ج١، ص٣٩.

(٣) المغرب: ص٤٩.

(٤) يتيمة الدهر: ج١، ص٣٣٠.

أكثر شعراء هذه الأسرة لم يكونوا في عصرنا هذا الذي نؤرخه، وسنعرض للحديث عنهم في بحثنا عن الأدب المصري في عهد الفاطميين، ويكفي أن نتحدث عن أبي القاسم أحمد بن محمد. درس هذا الشاعر الآداب وأكثر من إنشاد الشعر، وظهر أثر دراساته في شعره، فكان يميل إلى الأخذ بمذهب مسلم وأبي تمام في الإكثار من الزينة البديعية، والتشبيهات وما إلى ذلك من ألوان الصنعة البيانية، وأكثر شعره الذي وصلنا في الغزل، والغزل المبني على القصص حتى يخيل إلينا أن الشاعر كان متأثرًا بمذهب عمر بن أبي ربيعة، ولكنه يختلف عن عمر، فقد كان عفيفًا في شعره، وهذا أمر طبيعي لمن كان في مثل مكانته الأدبية والدينية، فغزله يقوم على الوصف والحوار دائمًا كقوله:

عيرتني بالنوم جورًا وظلمًا ... قلت: زدت الفؤاد همًّا وغما
لم أنم لذة، ولا نمت إلا ... طمعًا في خيالكم أن يلما[1]

وكقوله أيضًا:

قالت: أراك خضبت الشيب. قلت ... سترته عنك يا سمعي ويا بصري
فاستضحكت ثم قالت من تعجبها ... تكاثر الغش حتى صار في الشعر[2]

ويخيل إليَّ أن ابن طباطبا أصيب بفقد حبيب عزيز لديه؛ إذ ظل يذكره حينًا بعد حين، ويكثر من الحديث عنه في شعره، فقال مرة:

خليلي إني للثريا لحاسد ... وإني على صرف الزمان لواجد
أيبقى جميعًا شملها وهي سبعة ... وأفقد من أحببته وهو واحد

(١) شرحه: ج١، ص٣٢٩.
(٢) شرحه.

كـــذلك مـــن لم تخترمـــه منيـــة يـرى عجبًـا فـيما يـرى ويـشاهد[١]

وقال مرة أخرى:

لا والتـــي تركتنـــي يـــوم فرقتهـــا كـــأنما الرمـــل في عينـــي منثـــور[٢]

وقال مرة ثالثة:

مـا اخـترت تبـديل المـودة سـاعة بعـد الـذي هجـر الحـما وجفـاني[٣]

ومن يدري لعل هذه الأشعار قيلت في زوجه التي تكون قد توفيت وتركته ينشد مثل هذه الأشعار فيها.

ولابن طباطبا بعض المقطعات في الخمر كقوله فيها:

يـــا بـــدر بـــادر إلي بالكـــأس فـــرب خـــير أتـــى عـــلى يـــأس
ولا تقبـــل يـــدي فـــإن فمـــي أولى بهـــا مـــن يـــدي ومـــن رأسي
لا عـاش في النـاس مـن يلـوم عـلى حبـي وعـشقي لأحـسن النـاس[٤]

وكقوله:

قـل للـذي حـسنت منـه خلائقـه باكر صبوحك واسبق من تسابقه
أمـا تـرى الغـيم مجموعًـا ومفترقًـا يـــسير هـــذا إلى هـــذا يعانقـــه
كعاشـــق زار معـــشوقًا يودعـــه قبـــل الفـــراق فـــآلى لا يفارقـــه[٥]

---

(١) المغرب: ص٤٩.
(٢) المغرب: ص٤٩.
(٣) شرحه: ص٥١.
(٤) يتيمة الدهر: ج١، ص٣٢٩.
(٥) شرحه.

وقد ذكرنا أن ابن طباطبا يعد من أقدر شعراء مصر في هذا العصر في وصف الطبيعة ومحاكتها، ولعل ما قاساه من فراق من أحب جعله يهيم إلى أحضان الطبيعة يناجي من غاب عنه، ليأخذ من الطبيعة سلوة، انظر إلى قوله:

رب ليل صحبته كاسف البا ... ل كئيبًا حليف هم شتيت
تحت سقف من الزمر ... د قد رصع بالدر والياقوت

اختلف المؤرخون في وفاة ابن طباطبا فذكر ابن سعيد عن القرطي أنه توفي سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة[١]. وقال ابن خلكان عن المسبحي: إنه توفي سنة خمس وأربعين وثلاثمائة[٢]. وقال صاحب «مطالع البدور في منازل السرور»: إنه توفي سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة[٣].

(١) المغرب: ص٥١.
(٢) ابن خلكان: ج١، ص٤٠.
(٣) ج١، ص٣٦.

خاتمة

لعلك أدركت الآن كيف تطورت مصر في هذا العصر منذ دخلها العرب فاتحين، ثم استقروا بها، حتى دخلها جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله الفاطمي سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة من الهجرة، وانتزع مصر من الإخشيديين، فقد كان أثر العرب في مصر كبيرًا جدًّا، تدركه في تحول المصريين عن لغتهم اليونانية والقبطية واتخاذهم اللغة العربية لغة للتخاطب ولغة لآدابهم، وثم تدركه في هذه الدراسات الإسلامية والعربية وازدهار هذه الدراسات في مصر، حتى صارت مركزًا من مراكز الحياة العقلية في الأقطار الإسلامية.

ومع ذلك كله فقد استطاعت مصر أن تحتفظ بشخصيتها، فقد اضطرت العرب إلى أن يندمجوا في المصريين، وأن يكون الجميع شعبًا واحدًا هو الشعب المصري الإسلامي.

وقد تلقت مصر جل المدنيات القديمة، وأخذت منها بحظوظ تختلف قوة وضعفًا، ولكن مصر استطاعت أن تمصر هذه المدنيات جميعًا، فلما أن جاءها العرب والمسلمون يحملون الثقافة الإسلامية العربية، التقت هذه الثقافة بالثقافات التي كانت في مصر قديمًا، وامتزجت هذه الثقافات جميعًا، فكان ثمرة هذا المزج هي الثقافة المصرية الإسلامية التي ظهرت بعد ذلك العصر الذي أرخناه في هذا الكتاب.

ولعلك أدركت أيضًا أثر مصر في الشعر الذي أوردنا لك صورًا منه،

فإنك لم تر المعاني البدوية القديمة، ولا تشبيهات الجاهليين أو شعراء الأمويين، وظهر في شعر المصريين الآراء المصرية والحوادث المصرية، التي لا تصدر إلا عن قوم عاشوا في مصر. وإذن فقد كان أثر مصر في الشعر كبيرًا كما كان أثرها في العلم كبيرًا.

(وبعدُ) فهذا البحث الذي تحدثت فيه عن مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، ما هو إلا مقدمة لبحث آخر، أرجو أن أقدمه للطبع قريبًا؛ وهو بحث «الأدب في مصر الفاطمية» وهو تاريخ الأدب في العصر الذي أصبحت فيه مصر زعيمة الأقطار الإسلامية في الآداب والعلوم.

ثبت بالمراجع والمصادر

آثار البلاد للقزويني، طبع جوتنجن ١٨٤٨م.
اتعاظ الحفنا بأخبار الأئمة الخلفا للمقريزي، ليبسك ١٩٠٩م.
أحسن ما سمعت للثعالبي، مطبعة الجمهور بمصر ١٣٢٤هـ.
أخبار سيبويه المصري لابن زولاق، نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ١٢٠ع (تاريخ).
أخبار قبط مصر للمقريزي، طبع جوتنجن ١٨٤٥م.
أخبار مصر لعبد اللطيف البغدادي، طبع إكسفور ١٨٠٠م.
أدب النديم لكشاجم، طبع بولاق ١٢٩٨هـ.
الأغاني للأصفهاني، طبع مطبعة الجمهور ١٣٢٣هـ.
أبناء الرواة على أنباء النحاة للقفطي، نسخة فتوغرافية بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٧٩ (تاريخ).
الانتصار لواسطة عقد الأمصار لابن دقماق، ج٤ و٥، طبع بولاق ١٣٠٩هـ.
الأنساب للسمعاني، طبع ليدن ١٩١٢م.
بدائع البداية لابن ظافر المصري، طبع بولاق ١٢٧٨هـ.
بدائع الزهور لابن إياس، طبع بولاق ١٣١١هـ.
بغية الوعاة للسيوطي، مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٢٦هـ.
البيان والإعراب عمن نزل مصر من الأعراب، مطبعة المعارف ١٣٣٤هـ.
تاريخ ابن الأثير، طبع بولاق ١٢٩٠هـ.
تاريخ ابن خلدون، طبع بولاق ١٢٨٤هـ.

تاريخ ابن الراهب، طبع بيروت ١٩٠٣م.
تاريخ أبي صالح الأرمني، طبع إكسفورد ١٨٩٤م.
تاريخ الطبري، طبع المطبعة الحسينية بمصر.
تاريخ الإسلام للذهبي، نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ٤٢ (تاريخ).
تاريخ الأمة القبطية، طبع مطبعة التوفيق ١٩٢١م.
تاريخ التمدن الإسلامي، طبع مطبعة الهلال.
تاريخ يحيى بن سعيد، طبع بيروت ١٩٠٥م.
تاريخ اليعقوبي، طبع ليدن ١٨٨٣م.
تاريخ ووصف الجامع الطولوني للأستاذ عكوش، طبع دار الكتب ١٩٢٧م.
تراجم رجال صحيح البخاري، نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ٣١٤ (حديث).
تحفة المجالس للسيوطي، طبع دار السعادة ١٣٢٦هـ.
تهذيب الأسماء للنووي، القاهرة ١٣٤٥هـ.
ثمرات الأوراق لابن حجة، على هامش محاضرة الأدباء.
الجامع في الحديث لعبد الله بن وهب، نسخة فتوغرافية بمكتبة الجامعة المصرية.
الجوهر النفيس في أشعار الإمام ابن إدريس، طبع مطبعة النيل ١٣٢١هـ.
حديث الأربعاء للأستاذ الدكتور طه حسين بك، الطبعة الأولى ١٣٤٤هـ.
حسن الجمع فيما قيل في قصر الشمع، نسخة فتوغرافية بالمكتبة الأميرية رقم ٢٥٤٤.
حسن المحاضرة للسيوطي، طبع دار الوطن ١٢٩٩هـ.
حلبة الكميت للنواجي، طبع دار الوطن ١٢٩٩هـ.

الخريدة النفيسة في تاريخ الكنيسة، الطبعة الثالثة ١٩٢٣م.
در السحابة فيمن نزل مصر من الصحابة للسيوطي، نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ٣٩م.
الدر المنظوم فيما ورد في مصر من موجود ومعدوم للجوهري، نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ٨٦٣.
دمية القصر للباخرزي، طبع حلب ١٩٣٠.
الديارات للشابشتي، نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ١٧٥٦.
ديوان أبي تمام، طبعة محيي الدين الخياط.
ديوان ابن قيس الرقيات، طبع فينا ١٩٠٢م.
ديوان كشاجم، طبع بيروت ١٣١٣هـ.
ديوان المتنبي، طبع مصطفى محمد.
ديوان أبي نواس، طبع مصر ١٢٧٧هـ.
ذكر دخول قبط مصر في دين النصرانية للمقريزي، طبع ١٨٢٨م.
ذكر ديار مصر، طبع جوتنجن ١٧٧٦م.
الرحمة الغيثية بالترجمة الليثية لابن حجر، طبع بولاق ١٣٠١م.
رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر، نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ١٠٥.
زهر الآداب للحصري، المطبعة الرحمانية ١٣٤٥هـ.
سيرة الآباء البطاركة لابن المقفع، طبع بيروت ١٩٠٧.
سيرة ابن طولون لابن الداية، طبع برلين ١٨٩٤.
صبح الأعشى للقلقشندي، طبع دار الكتب المصرية.

ضحى الإسلام للأستاذ أحمد أمين، مطبعة الاعتماد.
طبقات الشافعية الكبرى، المطبعة الحسينية ١٣٢٤هـ.
الطبقات الكبرى لابن سعد، طبع ليدن ١٣٢٢هـ.
العقد الفريد لابن عبد ربه، طبع مصر ١٩٢٨م.
العمدة لابن رشيق، طبع مصر ١٩٢٥م.
فتوح مصر للواقدي، طبع ليدن ١٨٢٥.
فتوح مصر لابن إسحاق الأموي، مصر ١٢٧٥هـ.
فتوح مصر لابن عبد الحكم، طبع نيوهافن ١٩٢١م.
فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين، الطبعة الأولى.
الفخري لابن الطقطقي، مصر ١٣١٧هـ.
الفهرست لابن النديم، طبع مصطفى محمد.
فضائل مصر للكندي، نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ٤٢٢.
فضائل مصر لابن زولاق، نسخة خطية بمكتبة الأزهر رقم ٦٦٩.
فوات الوفيات لابن شاكر، بولاق ١٢٨٣.
كتاب الولاة والقضاة للكندي، طبع ليبسك ١٩٢٥م.
مجالس أبي مسلم، نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ٧٧ش.
محاضرات الأدباء، طبع مصر ١٢٨٧هـ.
مختصر تاريخ الدول لابن العبري، إكسفورد ١٦٦٣.
مروج الذهب للمسعودي، بولاق ١٢٨٣.
مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري، ج١، طبع دار الكتب ١٩٢٤، والباقي نسخ خطية بدار الكتب المصرية رقم ٣٣٦.

معجم الأدباء لياقوت.

معجم البلدان لياقوت.

المغرب في محلي المغرب لابن سعيد، نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ١٠٣م، الجزء الرابع، طبع ليدن ١٨٩٨م.

المكافأة لابن الداية، طبع مصر ١٩٢٤م.

النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، طبع دار الكتب المصرية.

نهاية الأرب للنويري، طبع دار الكتب المصرية.

الوافي بالوفيات للصفدي، نسخة خطية بالمكتبة التيمورية.

وفيات الأعيان لابن خلكان، مصر ١٣١٠هـ.

يتيمة الدهر للثعالبي، طبع بيروت.

مراجع إفرنجية

Butcher: the story of the church of Egypt «London ١٨٩٧» .

Butler: the Arab conquest of egpt p.(oxford ١٩٠٢).

Butler: the ancient Coptic churches of Egypt (oxford ١٩٨٤).

Corbett: the Life and works of Ahmed Ibn Tulun (G R A s ١٨٩١).

EncycloePedia Britannica.
EncycloePedia of Islam.

Galtier: contribution a Etude de la Litterature Arabe copte (cairo ١٩٠٥).

Grohman: Arabic Papyri in the Egyption Library.
Hugh: the Monastries of the wadi n Natrun (V I New york).

Lane-Poole: Mohammedan Dynasties London (١٨٤٠).

Lane poole: History of Egypt in the Middle Ages (London ١٩٢٥).

The Arts of the Saracens in Egypt (London ١٨٦٨).

Marcel: L Historie d Egypt (Paris ١٨٤٨).

MiLne: A History of Egypt Under Roman Rule.
NIchoLson: A Literary History of the Arabs.
Quatremere: memoires Geographiques sur L Egypte et sur quelques contrees Voisines (paris ١٨١١).

Recherches sur La Langue et La LitteraTure de L Egypte (paris ١٨٠٨).